المكتبة الخضراء للأطفال

٥٢

حسناء والثعبان الملكى

تأليف
يعقوب الشارونى

رسوم
حسام الدين عبد الغنى



المكتبة الخضراء للأطفال

(٥٢)

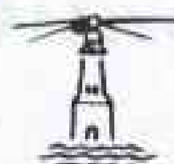
حسناء والثعبان الملكى



تأليف
يعقــوب الشــارونى

رســوم
حسام الدين عبد الغنى

الطبعـــة الثانيـــة



دار المعارف



بعيون يَمْلؤهَا الفزعُ فوجِئَتْ «حسناءُ» برؤيةِ «جبَلِ الماءِ» الهائلِ يتدفّقُ مُنحدِرًا بعنفٍ مِنْ فوقِ «جبلِ الصخور» المواجِهِ لهَا عَلى الناحيَةِ المقابلَةِ منَ الوادى .

لَمْ تصدّقْ عينَيْها وهى تَرى أطنانَ الماءِ تنزلُ فى سرعةٍ رهيبةٍ مثلَ وَحْش صَمّمَ على اللحَاق بفريستِه، يَنْتزِعُ فى طريقه كُتَلَ الصخورِ والأحجارِ ويحمِلُها كأنهَا قِطَعٌ منَ الأخشابِ تَطْفو وليسَتْ صخورًا تغوصُ، فقد غيّرَتْ مياهُ السّيلِ طبيعةَ تلكَ الأحجارِ فجعلَتْها تطفُو وتتقلّبُ معَ موجاتِ الماءِ وهى تشقُّ طريقَها فى سرعةٍ لتكتسحَ كلّ شيءٍ .

كانَتْ كمّياتُ الماءِ الهائلةُ التِى نزلَتْ أمطارًا شَديدةَ الغزارَةِ منَ السماءِ، تندفعُ مَعَ ما تحملُ مِنْ صخورٍ إلى الوادى المُنخفضِ المحصُورِ بينَ الجبالِ

المرتفعـةِ عَلى جانبَيْهِ، فملأَتْهُ في لحظَـاتٍ، واختلطَت المياهُ بالرمالِ فأصبحَ لونُ السيلِ أصفرَ قاتمًا كأَنّ وجهَ الصحراءِ قَدْ غضبَ فاكفهرّ.

وقبلَ أنْ تفكّرَ حسـناءُ في شيءٍ، كانَتْ مياهُ السيلِ العكرَةُ قَدْ ملأَتْ بطنَ الوَادِى وبدأَتْ تعلو لتُغطِّىَ الصخورَ المنخفضَةَ عَلى سـفْحِ الجبالِ مِنَ الجانبَيْنِ، فانقلبَ الوادِى الصامتُ الموحِشُ شديدُ الجفَافِ إلى نهرٍ متسعٍ هَائجٍ له دَوِىٌّ يصمُّ الآذانَ!

واندفعَـتْ جبالُ الماءِ، والصخـورُ تحطّمُ أمامَها الأشجارَ النادرةَ ونباتَـاتِ الصحراءِ القليلةَ وأىّ شـيءٍ يبرزُ عَنْ سـطحِ الأرضِ، والمياهُ تكتسبُ فى كلّ لحظَةٍ سرعةً رَهيبةً وقوةً مُدمّرةً.

ولولاَ أَنّ جدةَ حسناء قد اختارَتْ بعنايةٍ تلكَ الهضبةَ الصغيرةَ المستويةَ المرتفعةَ عَنْ بطنِ الوادِى والبعيدةَ عنْ مجْرى السّيْلِ، وأقامَتْ فوقَها العشةَ التِى تُظلّلُها مَعَ حفيدتِهَا، لكانَتْ كُتَلُ الصخورِ المندفعةُ مَعَ الماءِ كعاصفةٍ كاسِحَةٍ قَدْ سحقَت الفتاةَ الصغيرةَ مَعَ عشتِهَا المتهالكَةِ وجرفَتْهما بعيدًا.

همسَتْ حسناءُ لنفسِهَا وقد رفعَتْ ذراعَيْها بغيرِ تفكيرٍ لتغطّىَ وجهَهَا مِنَ الماءِ، وهى تُسرِعُ لتحتمِىَ بصخرةٍ مرتفعةٍ بجوارِ العشـةِ: «لم تتصوّرْ جَدتى أبدًا أَنْ يأتِىَ سيلٌ بمثلِ هَذَا العنفِ والحجمِ!»

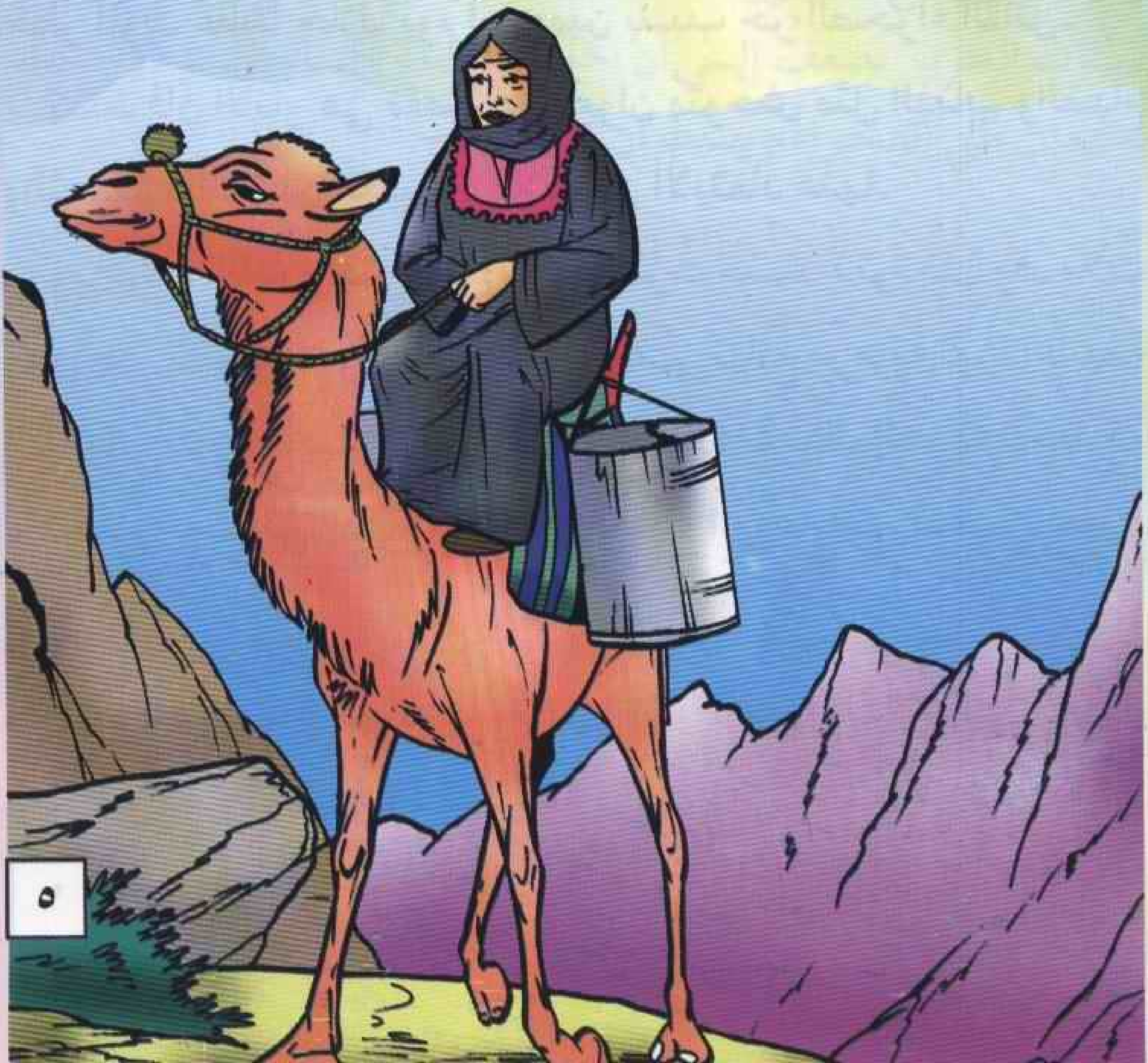
ذلكَ أَنّ رشاشَ مياه الأمواجِ المتلاطمةِ نتيجةَ اصطدامِها المَروعِ بالجبلِ فى الناحيةِ المقابلةِ، قَدْ أصابَ وجهَ حسناءَ وملابسَها و «البرشِ» الذى يُغطّى العشـةَ فأغرقَها كلّها بالبللِ الكثيفِ، كأنها خرجَتْ لتوّها من حمامٍ فى بحرٍ عَميقٍ.

شيءٌ واحدٌ قفزَ بإلحاحٍ إلى وَعْيِ حسناءَ:

«سَيفاجئُ السيلُ جدّتي وهيَ عائدةٌ فوقَ جملِها مِنْ عندِ البئرِ، كمَا فاجَأَ أمّي ذاتَ يوم الوادي طريقَ جدّتي لإحضارِ قربتَيْنِ منَ الماءِ العذبِ نعيشُ بهِ يومَيْنِ أوْ ثلاثةً معَ الجملِ والعنزتَيْنِ والدجاجاتِ الثلاثِ».

ولم يكُنْ لدى حسناءَ وقتٌ لتفكّرَ فى تلكَ المفارقةِ الغريبةِ: جدّتُها تسافرُ وحيدةً فوق جَملِهَا ساعات طويلةً مرتَيْن كلّ أسبوع إلى البئرِ البعيدِ لتُحضرَ قليلاً منَ الماءِ، لأنهُ لا توجَدُ قطرةٌ واحدةٌ علَى مسافةٍ تصلُ إلى عشرينَ كيلو مترًا تفصلُهم عنِ البئرِ، بغيرِ أىّ أملٍ فى ماءِ المطرِ، وسطَ صحراءِ مصرَ الشرقيةِ، بينَ سلاسلِ جبالِ البحرِ الأحمرِ، عَلى مبعدةِ مئاتِ الكيلو متراتِ من نهرِ النيلِ.

وقد سافرَتِ الجدّةُ اليومَ مَعَ الشروقِ، وكانَتْ عودتُها متوقعةً معَ



الغـروب بحثًا عَنْ قطرةِ ماء، وهَا هِىَ أطنانٌ من الماءِ تتدفّقُ الآنَ تحت قدمَىْ حسناءَ تكادُ تقضى عليهَا وتقتلُها غرقًا أو تسحقُها بمَا تحملُ مِنْ صُخُورٍ، وقد سقطَتْ كلُّهَا منَ السماءِ فانهمرَتْ سيولاً بغيرِ حسابٍ!!

ولم تفكِّـرْ أبدًا فِى أنّ حياتَها معَ جدتِهـا وَحْدَهما بغيرِ أنيسٍ منَ البشـرِ فى هذه الصحراءِ المترامية وسطَ الصخورِ الموحشَةِ، هى الشيءُ الغريـبُ! فكلُّ أفرادِ عائلاتِ قَبائل صَحْراء مصرَ الشرقيةِ بينَ النيلِ والبحرِ الأحمرِ، تعيشُ مُنفردةً، تفصلُ بينَ كلِّ عشةٍ وأُخرى مسافةٌ لا تقلُّ عنْ ستةٍ أو سبعةِ كيلو متراتٍ.

كما أنهم لا يحبُّونَ الحياةَ بالقربِ منَ الآبارِ، لأَنّ كلّ هاربٍ أو مغامرٍ فـى الصحراءِ لن يبحثَ إلا عن مكانٍ قريبٍ مِـنْ بئرٍ ليتفادى مواجهةَ خطرِ الموتِ عطشًا خلالَ يومٍ أو يومَيْنِ بسببِ حرِّ الصحراءِ القاتلِ.

كذلك فإن الآبارَ هِىَ مقصدُ كلِّ حيوانٍ مُتوحّشٍ مثل الذئابِ والضباعِ والثعالبِ والثعابينِ الكبيرةِ، فلابدّ مِنَ الابتعادِ عنهَا.

وَمِنْ وقتِ الظهرِ وحَتّى الغروبِ استمرّتْ حسـناءُ ترتجفُ وقدْ مَلأَتْ الهواجسُ نفسَـها خوفًا على جدّتِها، وهـى تتابعُ مرعوبةً ثورةَ الطّبيعةِ الطاغيةَ، تمارسُ فيها الأرضُ والسـماءُ أعنفَ أشـكالِ الحركَةِ الجبارَةِ، والاندفاعِ العشوائىّ الذِى لا يرحمُ، والضجّةِ المروّعةِ التى تذهبُ بالعقلِ!

* * *

وكمَا بدَأَ السـيلُ فجأةً، فإنه قبلَ الغروبِ بقليلٍ بدأَ اندفاعُ الماءِ يقلُّ فجأةً، والأصواتُ الهادرةُ تهدأُ.

وقليلاً قليلاً توَقّفَ انحدارُ الماءِ واصطدامُ الصخُور، وحلّ محلّها صوتُ الخرير المرتفع الصّادرِ عَنِ الماءِ الذى ظلّ يتسرّبُ مِنْ آلاف الشقوقِ التى تتخلّلُ أحجارَ الجبل، وهو يتساقطُ فِى طريقه إلى بطنِ الوادى.

ورويدًا رويدًا هدأتْ مياهُ النهر العريض الغاضب الذى صنعَتْهُ الطبيعةُ فِى ساعَاتٍ، بل بدأ سطحُ الماءِ ينخفضُ قليلاً قليلاً حتّى ظهرَت الصخورُ عنـدَ قاعدةِ الجبال علـى جانبى الوادى نظيفةً ناصعـةَ الألوانِ واضحةَ الشـقوقِ، فبدأتِ السـحَالِى والفئرانُ والعقاربُ وغيرُهـا منَ الزواحفِ والقوارضِ التى هربَتْ من السيلِ تعودُ إلى جحورِهَا وشقوقِهَا.

وعندمَا مـلأ اللونُ البرتقالىُّ السـماءَ قُبَيْلَ الغـروب، كانَتْ رمالُ الصحراءِ العَطْشَى قد تشرّبَت الماءَ كلّهُ، وتركَت الحصى الأملسَ البنىّ والأحمـرَ وقِطَعَ الصخور الخشـنةَ المفتتةَ تفترشُ قـاعَ الوادى، بينمَا صـوتُ الخرير يضعفُ إلـى أَنِ اختفَى تمامًا، وعـادَ الهدوءُ والصمتُ يُخيّمانِ عَلى الصحراءِ ويسيطرَانِ عليهَا.

* * *



لكنَّ الجدةَ لم تظهرْ، ولم يظهرِ الجملُ الذِى كانَ يحملُ الجدةَ.

سألَتْ حسناءُ نفسهَا فى قلقٍ شديد:

«مَاذَا أفعلُ إذَا كانَ السيلُ قَدْ حَاصرَ جدّتى؟! هل يُمكنُ أَنْ أواصلَ الحياةَ وحْدى هنَا إذَا كانَ قد أخذَهَا معه كَمَا أخذَ أمّى مِنْ قبلُ؟!!».

ثُمَّ عادَتْ تقولُ: «طلبْتُ منهَا كثيرًا أَنْ تأخذَنى خلفَها فوقَ الجملِ لكَىْ أحفظَ جيدًا معالمَ الطريقِ إلى البئرِ، لكنْ لم أسمعْ منهَا إلا إجَابَةً واحدةً لَمْ تتغيّرْ: «عندمَا تكبرينَ!».. لعلّها كانَتْ تتصورُ أَنَّ استجابةَ طَلَبى معناهُ أَنَّ النهايةَ أصبحَتْ قريبةً منهَا!.. وهَا هِىَ النهايةُ قدْ أقبلَتْ فجأةً عَلى غيرِ توقُّعٍ، وبرميلُ الماءِ داخلَ عشتِنَا فَارِغٌ!!».



وَمِنْ خِلَالِ هواجسِهَا ظهرَ أمامَها سؤالٌ جديدٌ غريبٌ، تذكّرَتْ معه حياتَهَا مَعَ والدِها بعدَ فراقِ والدتِها: «هَلْ كانَتْ جدتى تَخْشَى أَنْ يرانى - عندَ البئرِ - أحدُ الشبابِ، فيطلبَ الزواجَ منّى، وَهِىَ تكرهُ فكرةَ فِرَاقِى؟!»

* * *

وفجأةً أحسّتْ حسناءُ بالعطش، فأدركَت المأزقَ الذى ينتظرُها.

ضغطَتْ عَلَى شفتِها السُّفْلى بأَسنانِهَا وقَالَتْ تلومُ نفسَها:

«كانَ الماءُ كثيرًا أَمَامى، فكيفَ لَمْ أفكّرْ أَنْ آخذَ منه حَاجتى؟! هَلْ كنتُ أتوقّعُ عودةَ جَدّتى سريعًا بالماءِ عَلى الرغمِ مِنَ السيلِ، أم أَنَّ الرعبَ شلّ تفكيرى؟!».

لكنهَا عادَتْ تُهدّئُ نفسَها وتُجيبُ عَنْ تساؤلاتِها:

«اختلاطُ الرملِ بالسيلِ، ولونُ الماءِ القاتمُ، لم يسمحَا لِى بالتفكيرِ فِى الاحتفاظ بشىءٍ لِريّ العطشِ».

ثُمّ أَضَافَتْ: «وهل كانَ فِى إمكَانى المخاطرةُ بالنزولِ إلى مَجْرى ماءِ السيلِ فَيَسْحبنى مَعَه كَمَا سحبَ وَالدتى مِنْ قبلُ؟ وكيفَ كنْتُ آمنُ أَنَّ السيلَ لن يعاودَ التدفُّقَ مِنْ جديدٍ فيأخذَنى معه فى طريقِهِ الجبّارِ؟».

* * *

كانَ قلقُ حسناءَ عَلى جدتِها قد تَزَايَدَ حَتّى وصلَ إِلى الاعتقادِ بأنها قدْ فقدَتْهَا إلى الأبدِ، وحاجتُها إلى ماءِ الشرب اشتدّتْ حتى أصبحَتْ تتوقّعُ الموتَ عطشًا، عندما سمعَتْ فجأةً صوتًا تعرفُهُ جيدًا وتخافُهُ كثيرًا. إنه صوتٌ خافتٌ كالذى يُحْدثُهُ احتكاكُ عظامٍ ببعضِهَا.

همسَتْ لنفسِها وقد ثبتَتْ فى مكانِها لا تتحرّكُ منَ الخوف:

«جَدّتى لم ترجعْ، وهذا صوتُ قشورِ جلد ثعبانِ الطريشةِ يُنذرُنى باقترابِ وحشِ الصحراءِ المُميت بعدَ أنْ أخرجَهُ ماءُ السيلِ منْ مخبئه تحتَ الرمالِ. إنه النوعُ الوحيدُ منَ الثعابينِ الذى نكرهُهُ نحنُ سكانُ الصحراءِ!».

كانَتْ تعرفُ جيدًا أنّ ثعبانَ الطريشةِ رغمَ صغرِ حجمه، فإنه بمَا فِى أنيابهِ منْ سمّ قاتل سريع المفعولِ يُعتبرُ أبشعَ عدوٍّ لسكانِ الصحراءِ وحيواناتِهَا، فعضّتُهُ تقتلُ خلالَ لحظات.

لقد رأتْ ذاتَ مرة رجلاً منْ قبيلتِهَا قدْ عضّهُ ثعبانُ الطريشةِ فى يده، وكانَ قدْ مدّها ليمسكَ حزمةَ حطب وهو غيرُ مُتنبّه إلى أنّ الوحشَ الصغيرَ تحتَها يتربّصُ. وفِى الحالِ أخرجَ الرجلُ سكينَهُ منْ حزامه الجلدىّ، وبضربةٍ واحدةٍ قطعَ يدَهُ وما بها منْ سمّ منْ فوق مكانِ العضّةِ، فانفجرَ شلالٌ منَ الدم، وأسرعَ مَنْ حولَهُ يضمّدونَهُ لإيقافِ النزيفِ ويصبُّونَ عليه الدهنَ المغلىّ لتطهيره، لكنِ الثعبانَ الآثمَ الخبيثَ كانَ قدْ دفنَ نفسَهُ تحتَ الرمالِ واخْتَفَى.

وأدارَتْ حسناءُ عينَيْها ببطء، فشاهدَت الثعبانَ الغليظَ القصيرَ ملفوفًا حولَ نفسِه ورأسُهُ المبطّطُ المثلثُ الشكلِ تبرقُ منه عيناهُ المُسدّدتانِ نَحْوَها والشررُ يتطايرُ منهمَا!!



خافَتْ أَنْ تتحرّكَ فيهَاجمهَا الوحشُ الماكرُ، فَثعبَان الطّريشَـةِ قادرٌ أَنْ يفردَ جسـمَهُ فجْأةً كَأَنه وَتَرٌ مشدودٌ تركَهُ صاحبُهُ فجأةً، فيقفزَ فى الهواءِ كأنه يطيرُ لينهشَ ضحيتَهُ فى غمضةِ عينٍ ثُمّ يختَفِى.

همسَتْ لنفسها وشفتاهَا ترتجفان:

«تصـوّرْتُ أَنّ جَدّتــى قدْ أخذَها السـيلُ، لكنْ يبـدُو أنهَا هِىَ التِى سَتَأْتى فتجدُنى أَنَا قَدِ انتهَيْتُ!».

* * *

وفجــأةً رأتْ رأسَ الثعبانِ اللئيم يتحوّلُ بعيدًا عنهَا كأنه خافَ مِنْ شيءٍ، ثم أسرعَ يدسُّ جسمَهُ فى الرّمالِ ويخْتَفِى!!

والتفتَتْ تحاولُ اكتشافَ ذلك الشيءِ العجيبِ الذى كانَ السببَ فى إنقاذهَا منْ تلكَ الحيّةِ الشّريرة!

وبدلَ أنْ يملأَهَا خوفٌ أشدُ، طافَ بوجهها ظلُ ابتسَامة، فَمَا رأتْهُ لمْ يكُنْ إلا ثعبانًا ضخمًا قَدْ رفَـعَ رأسَـهُ فِى مُوَاجهتِهَا.



ثعبانٌ أضخمُ منْ ثعبَانِ الطريشــةِ مرات ومــرات، وقد التفّ معظمُ جسمِه الطويلِ حولَ ذيلِه عدةَ لفاتٍ، ورفعَ رأسَهُ منْ بينِ طياتِ جسمِهِ الكبيرِ فأصبحَ رأسُه فى مواجهةِ وجهِ حسناءَ!

كانَ ينظرُ مباشرةً فى عينَيْها!!

عيناهُ الخضراوتانِ زمردتان تُشعّان بريقًا كأنهما الماسُ.

قالَتْ وهي لا تستطيعُ أنْ تُبعِدَ بصرَها عنْ عينَيْه: «أهلاً!».

كانَتْ منذُ فوجئَتْ بالطريشــةِ بجوارِهَا وجســدُها يرتعدُ وشفتاهَا تَرْتعشان.. الآنَ تنبّهتْ إلى أنّ الارتعادَ توقّفَ والارتعاشَ زالَ.

لقد فارقَها الخوفُ وعادَ إليهَا الثباتُ.

لَمْ تكُنْ فى العينَيْنِ الزمردتَيْنِ قسوةٌ ولا رغبةٌ فى العدوَانِ..

ولَمْ تظهرْ فى حركَاتِه اللطيفةِ أيةُ رغبةٍ فى الإيذاءِ أو الهجومِ، بلْ وقفَ فى جلالٍ صامتًا ينظرُ إليهَا فى هدوءٍ..

كانَ كأنه ينتظرُ منها شيئاً.. وفكّرَتْ:

«إنه ينتظرُ أنْ أشكرَهُ لأنه أنقذَ حياتى منَ الوحشِ اللئيم!».

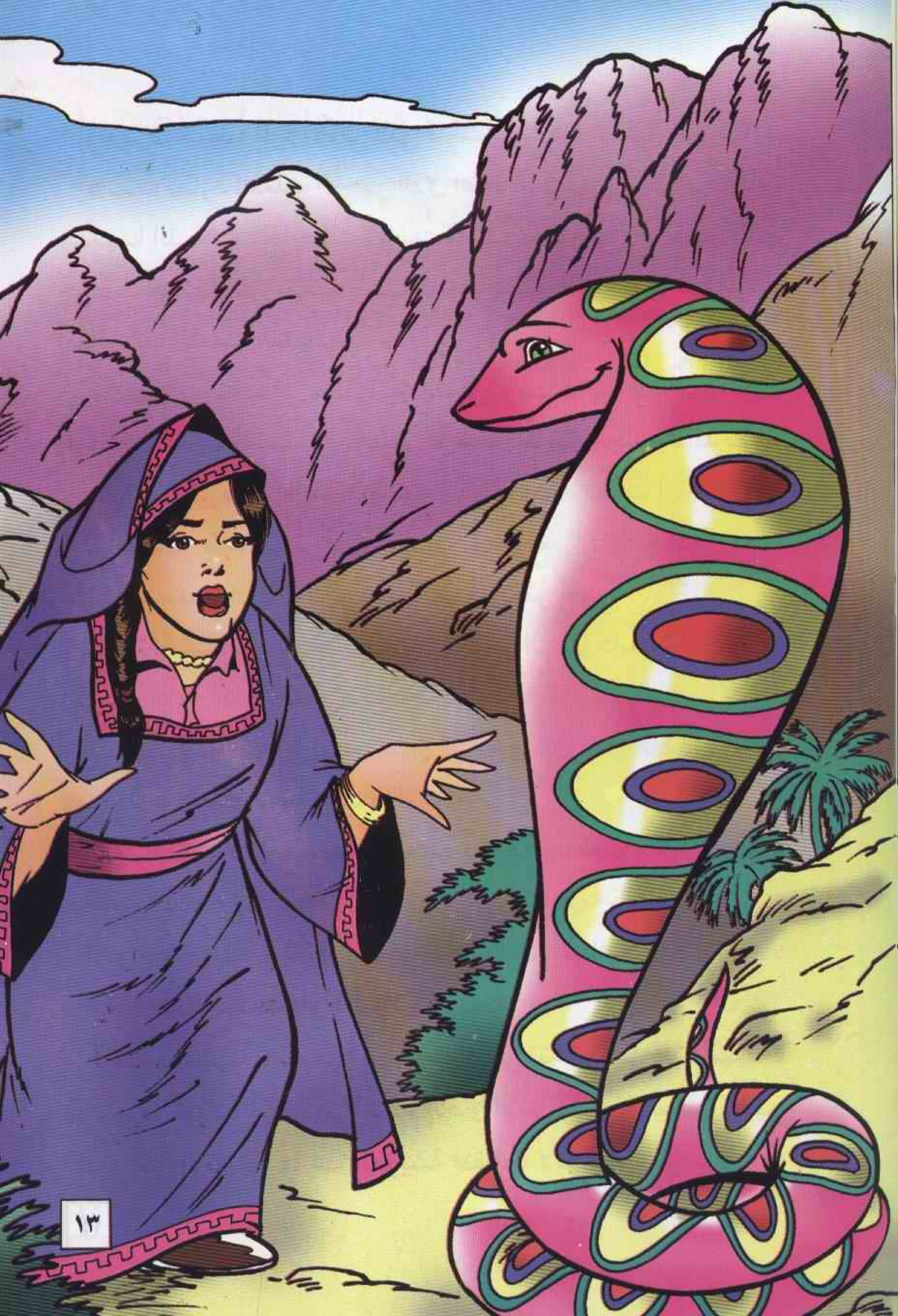
وبغيرِ تفكيرٍ فى اختيارِ الكلمات قالَتْ حسناءُ وهى تحاولُ جاهدةً أنْ تُظهرَ ابتسامةً واضحةً علىَ شفتَيْها: «أشكرُكَ!».

قالَتْ لنفسهَا:

«إذا كانَ لا يفهــمُ الكلماتِ فمنَ المحتمــلِ أنْ يفهمَ تعبيراتِ الوجهِ ونغماتِ الصوتِ!».

وكأنما قد فهمَ فعلاً، فقد هزّ رأسَــهُ فى شموخٍ، ثم أراحَ رأسَهُ على بقيةِ جسمِهِ فى اطمئنانٍ.

* * *



وتذكَّرَتْ حسناءُ المرةَ الأولى التِى قابلَتْ فيها هذَا المخلوقَ الغريبَ!..

كانَـتْ تطاردُ الثعلبَ الأحمرَ الذى اعتادَ أَنْ يسـرقَ بيضَ دجاجاتِ جدتِهـا الثـلاثِ، إذَا حدثَ وباضَتْ واحدةٌ منها خـارجَ القفصِ الذى حرصَتْ جدتُها على متانتِهِ وسـلامتِهِ ليحمِـىَ دجاجاتِها منْ غاراتِ أمثالِ ذلكَ الثعلبِ العنيدِ.

وقادَتْهـا المطـاردةُ إلى حفـرةٍ بينَ الصخورِ وجـدَتْ بها عددًا مـنَ البيضِ المستطيلِ الشكلِ.. ولمسَتْ غلافَ البيضِ فوجدَتْهُ لينًا مثلَ الجلدِ، فتأكَّدَ ظنُّها.

وتركَتْ مطاردةَ الثعلبِ وأمسـكَتْ حجرًا وقـد فكَّرَتْ أن تقذفَ به ذلكَ البيـضَ فتُحطِّمَهُ.. لقد عرفَتْ أنه بيضُ ثعبانٍ، لكنه أكبرُ حجمًا بكثيرٍ منْ بيضِ الثعابينِ الذى اعتادَتْ أَنْ تعثرَ عليه.

ثـمَّ تنبَّهَتْ إلى أنهَا لَمْ تعُدْ ترى الثعلبَ الـذِى كانَتْ تُطاردُهُ وهو يهربُ منها، لكنه اختفَى.. ببساطةٍ.. اختفَى من أمامِ ناظرَيْها!!

ثـم أدركَتْ أنـه اختفَى داخـلَ فكَّىْ ثعبـانٍ هائلِ الحجـمِ عيناهُ زمردتان، لا شكَّ أنه صاحبُ ذلكَ البيضِ.

لقـدَ خلَّصها ذلك الثعبانُ مـنْ عدوٍّ تكرهُهُ جدتُهـا، فهلْ تُجازيهِ بتحطيمِ بيضه؟

وتراخَتْ يدُهَا، وأفلتَتِ الحجرَ الذى كانَتْ تمسكُ به.

وتذكَّرَتْ معتقدات أفراد قبيلتها:

قالَـتْ جدتُها: «الثعابينُ منَ الجـنِّ التِى تتخفَّى علَى هَذه الهيئةِ، فيحـرصُ أفرادُ القبيلةِ علَى عـدمِ إلحاقِ الأذَى بهَا ولا ببيضها، فهِىَ قادرةٌ على الانتقامِ، ما عدَا الطريشةَ فنقتلُها لأنهَا حيَّةٌ مؤذيةٌ».

سألَتْ حسناءُ نفسَها: «وهلْ هذا الثعبانُ الهائلُ صاحبُ البيضِ المستطيلِ والعينَيْنِ الزمردتَيْنِ منَ الجنِّ الذِى يُقدِّمُ المساعدةَ للبشرِ ولَا يُؤذِى إنسانًا، أم منَ الجنِّ المُؤذِى؟».

وفى هدوءٍ انحنَتْ علَى الأرضِ كما اعتادَ بَدْوُ الصحراءِ الشرقيةِ أنْ يَفْعلوا، ورسمَتْ فى الرمالِ سبعةَ خطوطٍ أفقيةٍ بينهَا وبينَ الثعبانِ الكبيرِ وهى تقولُ: «هَذِهِ حدودُ اللهِ بينى وبينَكَ».



قالَتْ: «إذا تَحرّكَ هذا الثعبانُ بعيدًا عنِّى وعنِ الخطوطِ السبعةِ يكونُ منَ الجنِّ المسالمِ ومنْ وَاجبى أَنْ أتركَهُ فِى سلامٍ.. هكذا علَّمَتْنى جدتى.. أمّا إذَا تقدّمَ الثعبانُ نحوِى مارًّا عَلى تلكَ الخطوطِ فهو جنِّىٌّ يستحقُّ القتلَ!».

لكنَّ صاحبَ العينَيْنِ الزمردتَيْنِ ظلَّ فى مكانِهِ لم يتحرّكْ، لا بعيدًا عنهَا وَلاَ مقتربًا منهَا!!

وبعدَ لحظةٍ رفعَ رأسَهُ، ونشرَ ما تحتَ رأسِهِ!

وفى دهشةٍ صاحَتْ حسناءُ:

«إنها الحيةُ الملكيةُ.. شاهدْتُ صورتَها منحوتةً علــى الجدرانِ الصّخريةِ بجوارِ مناجمِ الذهبِ القديمةِ وسطَ الجبالِ بالقربِ منْ هنَا. كانَتْ مرسومةً فوقَ رأسِ الملكِ الذى حكمَ مصرَ فى الزمنِ القديمِ وشكلُها بارزٌ على مقدمةِ تاجِه».

وكأنمَا لمْ تكُنِ الحيةُ تنتظرُ إلا تَعَرُّفَ حسناءَ عليهَا، فتحرّكَتْ فِى تلكَ اللّحظةِ وانسابَ جسمُها الطويلُ مَبتعِدًا فِى هدوءٍ.

* * *

وقَدْ رأتْها حسناءُ مرةً واحدةً بعدَ ذلك.

كانَتْ تجولُ فى شعابِ الجبلِ تبحثُ عنْ حطبٍ لإشعالِ النارِ وطَهْيِ الطعامِ وصنعِ الخبزِ، عندمَا تنبّهَتْ إلى أنهَا قدْ ضلّتِ الطريقَ.

وحَاولَــتْ تتبُّعَ أَثَــرِ أقدامِهَا، فكلُّ أهلِ الصحــراءِ يتقنونَ تتبُّعَ آثارِ الأقدامِ، لكنها لم تجدْ إلا آثارَ زحفِ تلكَ الحيةِ الملكيةِ هائلةِ الحجمِ.

وبعَدَ أنْ تابعَتْ أثرَ الحيةِ مســافَةً، قابلَتْها تزحفُ، فتتبعَتْها إلَى أنْ عادَتْ معهَا إلى عشّةِ جدتِهَا.

سألَتْ حسناءُ نفسَها: «هل قَصَدَتْ حقًا أنْ تُرشِدَنى لأعودَ لأنهَا منَ الجنّ الطيبِ كمــا تقولُ جَدّتى، أم كانَتْ عائدةً إلى بيتِها كما تعوّدَتْ أَنْ تعودَ كلَّ يومٍ؟!».

ثم أنهَتْ حوارَها معَ نفسِها قائلةً:

«بلْ هِىَ لا تنْسى أنَنى حافظْتُ عَلى مَا كانَ فِى حفرتِها منْ بيضٍ».

* * *

وهَا هِىَ تراهَا اليومَ، للمرةِ الثالثةِ، تنقذُها منْ الحيةِ الطريشةِ المؤذيةِ التِى أخرجَها السيلُ منْ مكمنِها تحتَ الرمالِ.

همسَتْ حسناءُ لنفسِهَا:

«وهل يُمكِنُ أن يكونَ كلُّ هذَا مصادفاتٍ؟».

* * *

هنا انتزعَها الإحساسُ الشديدُ بالعطش منْ هَذه الذكرياتِ التِى سيطرَتْ عليهَا لحظاتٍ، وتنبّهتْ إلى ثغَاءِ الماعزتَيْن الطويلِ الحادِّ الذى لا يصدرُ إلا عندَ حَاجتِهمَا الشديدةِ إلى الماءِ، فاتّجهَتْ ناحيَتهما تمسحُ على رأسَيْهمَا وَهِىَ تقولُ فى إشفاقٍ:

«لَنْ أتركَ الحاجةَ إلى الماءِ تقتلُنا..».



وأسـرعَتْ إلى الخيمةِ أو العشـةِ، والتى يُسمّيها سـكانُ الصحراءِ «الخيشـة»، وأزاحَتْ غطاءَ الحصيرِ المصنوعَ منْ سـعفِ النخلِ والذى يُسمُّونَهُ «البرش»، فكشفَتْ عَنْ مدخلِ هيكلِ العشةِ المصنوعِ منْ أغصانِ أشجارِ السنطِ والسّيّالِ الصحراويةِ والذى يحملُ فوقه الغطاءَ أوِ البرشَ، ودارَتْ بعينَيْها تُقلّبُهما بينَ الأدواتِ البسـيطةِ التِى لا تتجاوزُ أوانِىَ الطّهْىِ وصاجةَ صنعِ الخبزِ.

ثـم اتجهَتْ فـورًا إلى الكيسِ المصنـوعِ منَ القماشِ السـميكِ الذى نسجَتْهُ جدتُها منْ وبرِ الجملِ وفيه يحتفظونَ بقِطَعِ مَلاَبسِهم القليلةِ، وفتحَتِ الربـاطَ الذى يلتفُّ حولَ فوهتِه، وأخرجَتِ الجلبابَ القصيرَ الذى كانَتْ ترتديه وهى طفلةٌ صغيرةٌ، ثم تناولَتْ وعاءَ الطبخِ الصّغيرِ، وأسـرعَتْ تقفزُ مـنْ صخرةٍ إلى صخرةٍ تبحثُ عـنْ فجوةٍ بينَ الأحجارِ تكونُ قد احتفظَتْ داخلَها ببعضِ ماءِ السيلِ.

وكلمـا وجدَتْ قطـراتٍ هنَا أو هنـاكَ، تغمسُ فيها قماشَ الثوبِ فيتشربُ النسيجُ الماءَ، ثم تعصرُهُ فى الوعاءِ.

وعندما تجمّعَ منَ القطراتِ شـربةُ ماءٍ، أمسـكَتْ حسـناء الوعاءَ بينَ يدَيْها ورفعَـتْ حافتَهُ إلى شـفتَيْها وشربَتْ ببطءٍ نصفَ مـا فيه، ثم



أسرعَتْ تضعُهُ عَلى الأرضِ أمامَ العنزتَيْنِ لتلعقَا فِى سُرعةٍ ما بَقِىَ.

* * *

عندئذٍ فقط تنبّهَتْ إلى أَنّ قرصَ الشمس قَد اختفى تمامًا وراءَ قِمَمَ الجبالِ المتفاوتةِ الارتفاع، كما اختفَتْ ألوانُ الغسق، لكنّ القمرَ ظهرَ بدرًا فَبدّدَ بعضَ الظلام الحالكِ الكثيف الذى يُغطّى الصحراءَ فى الليلِ حتّى لاَ يتركَ للإنسانَ أَنْ يرى كفّهُ، فعادَتْ حسناءُ تواصلُ عملَها فِى «جَنْى» محصولِ قطراتِ الماءِ وهى تُردّدُ قائلةً لنفسهَا:

«إذا كانَتْ جدّتى قَدْ نجتْ منَ السيل، فلا شكّ أنها الآنَ فِى طريقِهَا إلى هنَا، ما دامَ القمرُ يسمحُ للجملِ أَنْ يرى طريقَهُ».

وقد وجدَتْ حسناءُ منْ قطراتِ الماءِ مَا ملأَ قميصَ طفولتِها أكثرَ من مرةٍ، فأطفأَتْ نارَ عطشِها، لكنهَا لَمْ ترتوِ لا هِىَ ولا العنزتانِ.

* * *

ومعَ أنّ حسناءَ اعتادَتْ أَنْ تنامَ معَ حلولِ الظلام، فإنها لم تحاولْ هذه الليلةَ أَنْ تنامَ، بل لم تفكّرْ فى النوم، إنمَا جلسَتْ على حافةِ الهضبةِ الصغيرةِ، فوْقَ المساحةِ التى استقرّتْ فوقَها «خيشةُ» جدتِها، تركّزُ بصرَها على الوادِى تحتَها، لعلّ بصرَها يقعُ عَلى جدتِهَا حَالَمَا تُصبحُ فِى مَرْمى بصرِهَا عندمَا تعودُ فوقَ جملِهَا.

لكنّ المجهودَ الذى بذلَتْهُ فى يومِها غلبَها، فبدأتْ تدعكُ عينَيْها لتحملَهمَا عَلى عدمِ الانطباقِ، ثم قالَتْ لنفسِها وهى تتثاءبُ: «سأسندُ ظهرِى إلى هذه الصخرةِ التى تحمِى خيمتَنا منَ الرياحِ، فأتمكّنُ منْ رؤيةِ أىِّ شىءٍ يتحرّكُ فِى الوادى».

وفجأةً شـعرَتْ بدفءٍ يغمرُ وجهَها، فأسرعَتْ فَزِعَةً تفتحُ عينَيْها لتجدَ أشعةَ شمسِ الصباحِ قَدْ غمرَتِ العالمَ الرحبَ الفسيحَ الذِى طالما شعرَتْ فيه بالانطلاقِ والأمانِ، لا تحدُّها قيودُ المكانِ أو الزمانِ.

* * *

لكنّ شـيئًا عجيبًا كانَ قد حدثَ خلالَ الليل، فقد اختفَى منْ جنبات الـوادِى اللونُ الأصفرُ الذِى لا تعرفُ الرمالُ لونًـا غيرَهُ، وصافحَ عينَىْ حسناءَ اللونُ الأخضرُ لكساءٍ ناعم غطّى معظمَ مساحةِ قاع الوادى، خاصّة على الجانبَيْنِ، حيث لم تكتسحْ مياهُ السيل كلّ التربةِ، فسمحَ ذلك بنموّ تلـكَ النباتاتِ العجيبةِ التى تظلُّ بذورُها نائمةً تحتَ سطحِ الصحراءِ شهورًا طويلةً بل سنواتٍ، لكنها ما إنْ تشمّ رائحةَ الماءِ حتى تُطلّ زاهيةً خضراءَ، لتبدأ فى سرعةٍ دورةَ حياتِها القصيرةَ منْ إنباتٍ إلى زهورٍ إلى بذورٍ، قبلَ أنْ يقضِىَ عليهَا الجفافُ وسخونةُ حرارةِ الصحراءِ.

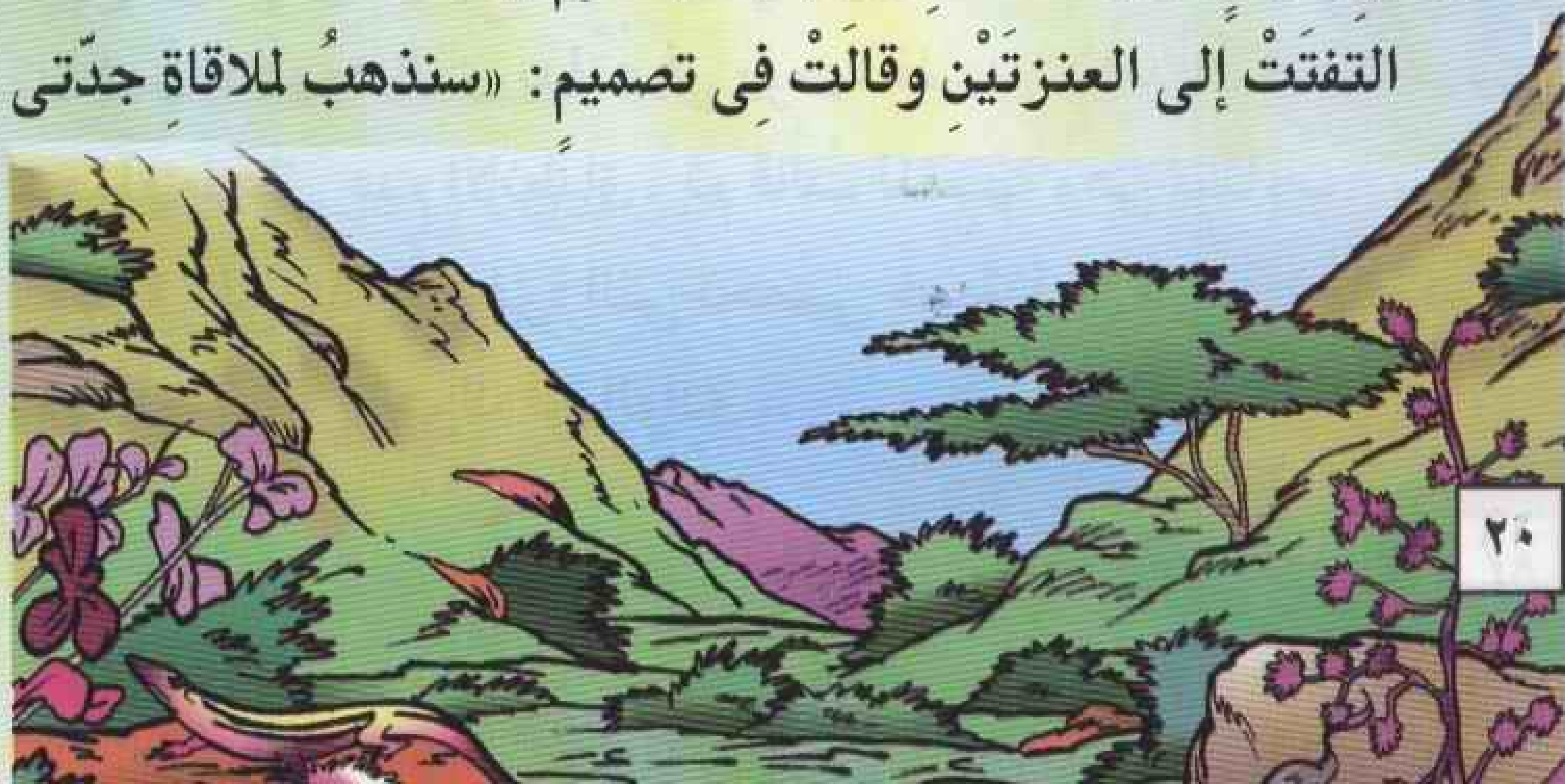
قَالَتْ حسناءُ: «ستجدُ العنزتانِ والجملُ غذاءً وفيرًا».

وكأنمـا تَذكُّرُها للجملِ قد أشـعلَ ذاكرتَها فجـأةً وبعنفٍ، فهبّتْ واقفةً تصيحُ وكأنها تصرخُ:

«الصبحُ أقبلَ لكنّ جدتى لَمْ تعُدْ ! !».

وبغيرِ تردُّدٍ قرّرَتْ مَا الذِى يجبُ أَنْ تقومَ به:

التفتَتْ إلى العنزتَيْنِ وقالَتْ فِى تصميمٍ: «سنذهبُ لملاقاةِ جدّتى



فِى طريقِ عودتِها، أو نواصلُ السيرَ حَتّى نصلَ إلى الماءِ فى البئر».

وتذكَّرَتِ الدجاجاتِ، وأنه لا يجبُ تركُها بغيرِ ماءٍ، فَقالَتْ لنفسِهَا: «الفجواتُ بينَ الصخورِ على الجانبِ الذى انحدرَ منْ فوقِهِ السيلُ لابدّ أنهَا تحتوى عَلى بعضِ الماءِ أكثرَ مما وجدْتُ هُنَا».

وأسرعَتْ تتناولُ جلبابَ طفولَتِها مع الوعاءِ، ونزلَتْ إلى بطنِ الوادى، ثم بدأتْ تتسلَّقُ صخورَ الجانبِ الآخرِ، حيث عثرَتْ - بعد مجهودٍ قليلٍ - عَلى ماءٍ ملأ الوعاءَ.

قالَتْ وهىَ تضعُ الوعاءَ داخلَ قفصِ الدجاجات:

«سيكفيكِ هَذَا الماءُ يومَيْنِ إلى أنْ أَعثرَ على جدَّتى، ونعودُ ومعنَا ماءٌ منَ البئرِ».

وبعدَ لحظاتٍ كانَتْ تُسرعُ وخلفَهَا العنزتانِ فى اتجاهِ مدخلِ الوادى، لا يعوقُها إلا تمهُّلُ العنزتَيْنِ بينَ وقتٍ وآخرَ كلمَا عثرتَا على نبتةٍ خضراءَ، فكانَتْ تهمسُ قائلةً: «همَا تأكلانِ النباتاتِ وما بِهَا منْ عصارةٍ، وأنا أشربُ من اللبنِ الذى قَدْ أجِدُهُ فى ضروعِهمَا».

* * *

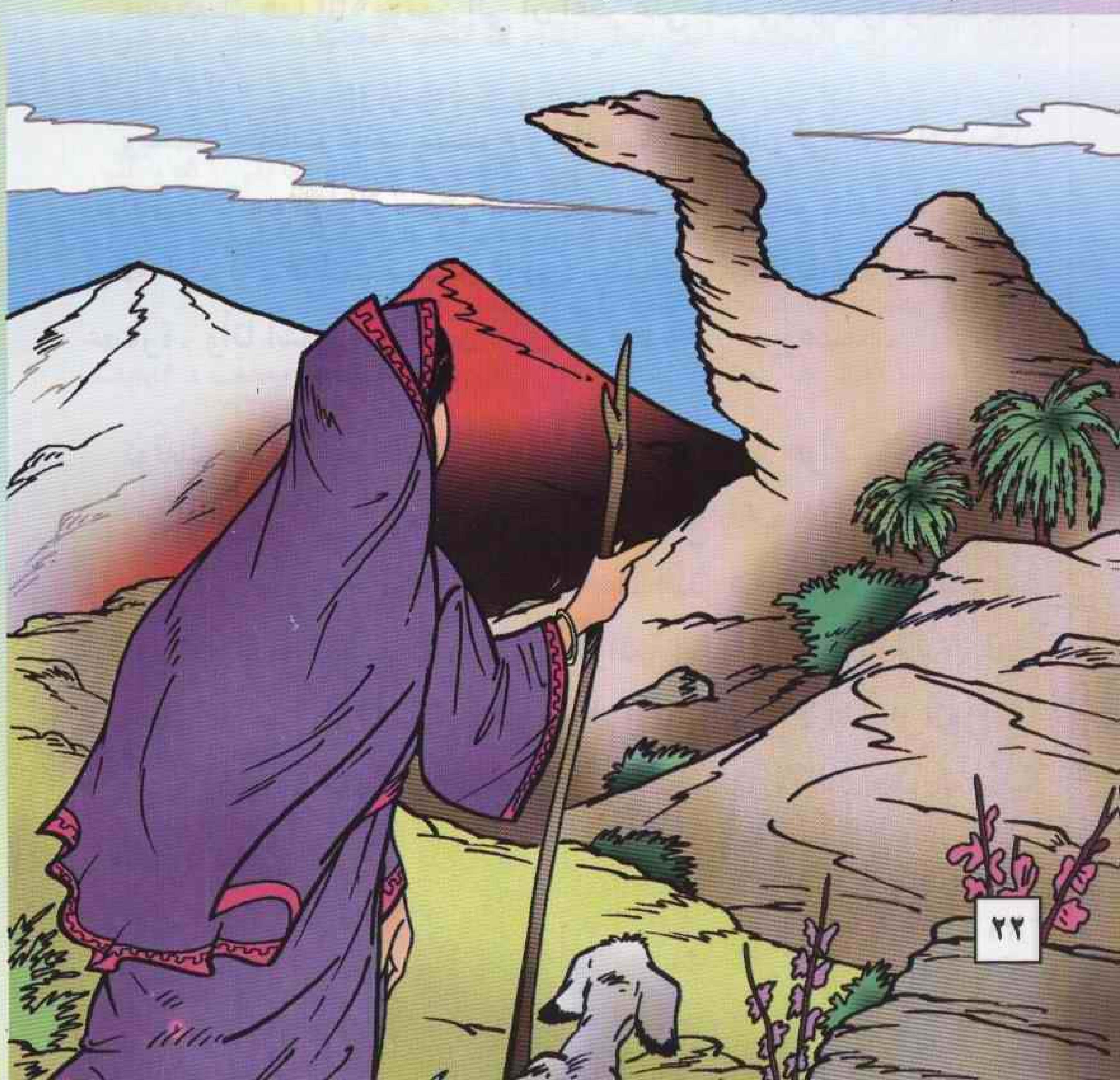
توقّفَتْ حسناءُ عندَ مدخلِ الوادى تتأمّلُ بيقظةٍ ما حولهَا وهى تقولُ:

«عندما تركْتُ أبى فى مدينةِ «مرسى علم» مع بدايةِ الشتاءِ قبلَ الماضى، وجئْتُ مع جدّتى لأولِ مرة، توقّفْنا ليلةً عندَ البئرِ فى طريقنا إلى هنا، وقد أثارَتْ ألوانُ الجبالِ الجميلةُ وأشكالُها الرائعةُ الشامخةُ انتباهى بقوةٍ، فهل تساعدُنى ذاكرتى الآنَ لأتعرّفَ عَلى معالمِ الطريقِ حتّى لا أضلّ أو أتوهَ؟».

ولم يطُلْ بها التأمُّلُ، فقد التفتَتْ إلَى العنزتَيْنِ وقالَتْ وهى تُشيرُ إلى جبلٍ عَلى يمينهَا:

«الآنَ أتذكّرُ بوضوحٍ هَذَا الجبلَ.. نصفُهُ العلوىُ أحمرُ والنصفُ الآخرُ يميلُ إلى السوادِ.. وهذَا الجبلُ الذى هناكَ أقلُّ ارتفاعًا منهمَا ولونُهُ أقربُ إلى البياضِ..» ثم عادَتْ تهتفُ لنفسِهَا وهى تستعيدُ شريطَ ذكرياتِهَا: «وبعدَهُ صخرةٌ نحتَتْها الرياحُ والأمطارُ على شكلِ رأسِ جملٍ وسنامِه..».

كانَتْ صُوَرُ الطريقِ قد تمّ حفرُها فى ذاكرتِها بوضوحٍ، فانطلقَتْ تسيرُ بغيرِ تردُّدٍ كأنمَا اعتادَتْ أنْ تروحَ وتجيءَ كلّ يومٍ فِى نفسِ الطريقِ. وكانَتْ تُردّدُ قائلةً لنفسِهَا:



«أمامى طريقٌ طويلٌ لنْ أبلغَ نهايتَهُ فى الظهرِ ولا معَ العصرِ أو عندَ الغروبَ، لكنْ لابد أنْ أصلَ إلى البئرِ قبلَ حلولِ الظلام.. جدتى تقولُ لى دائمًا إنّ ليلَ الصحراء حافلٌ بالمفاجآتَ، أخطرُها الزواحفُ والوحوشُ التِى تخافُ حرّ النهارِ ولا تخرجُ منْ مخابئهَا إلاّ معَ برودةِ هواءِ الليلِ».

* * *

وامتزجَتْ صُورُ الطريقِ بذكرياتِ فراقهَا لوالدهَا.. تذكّرَتْ وجهَهُ الأسمرَ الذى امتزجَتْ فيه خشونةُ حياة الصحراء بحنانِ الأبوة، وكيفَ كانَ يُطلُّ عليهَا معَ كلِ صخرةٍ تتخيلُ أنّ الطبيعةَ قد نحتَتْ منها ما يُشبهُ وجهَ إنسان.

ومع ملامح وجهِ والدِها التِى لا تفارقُ مُخيّلتَها، تُدوّى فِى أذنَيْها آخرُ عبارةٍ قالَها لجدتها:

«حسناءُ أمانةٌ فى عنقك».

فأجابَتْهُ الجدةُ فى رقّةٍ وفى شبهِ عتابٍ:

«هَلْ تُوصينى عَلى ابنتى؟!».

ثُمّ افترقُوا بغيرِ تبادُلِ كلماتٍ كثيرةٍ أخرى.

كانَتْ حسناءُ عندئذ فِى الحاديةِ عشرةَ منْ عمرهَا، يظنُّها مَنْ يراهَا فِى السادسةَ عشرةَ معَ علاماتِ أنوثةٍ مبكرةٍ ظهرَتْ عليهَا، تعيشُ مع والدهَا بعدَ وفاةِ والدتِها، فى بيتِهِ المتواضعِ المُكوّنِ منْ غرفتَيْنِ صغيرتَيْنِ استأجرَهما بالقربِ من مركزِ التعدينِ فى مدينةِ «مرسى علم» الصغيرةِ على شاطئِ البحرِ الأحمرِ، حيثُ يعملُ سائقًا لإحدى سياراتِ المركزِ.

كانَ عملُهُ يتطلّبُ منه أنْ يتركَ حسناءَ وحدَهَا فِى البيتِ معظمَ ساعاتِ النهارِ، ليتنقلَ بسيارتِهِ من «بريمةِ حفرٍ» إلى «بريمةٍ» أخرى، يجمعُ

منَ المهندسينَ عيناتِ الصخورِ التى يُخرجونَها منَ الآبارِ الجديدةِ التى تحفرُها شـركاتُ البترولِ، ثُمّ يعـودُ بتلكَ العيناتِ إلى مركزِ التعدينِ لتحليلِهَا والتعرُّفِ علَى مَا تحتوى عليه منْ شـواهدَ بترولية تُنبئُ عنْ قربِ الوصولِ إلى حقلٍ عميقٍ منْ حقولِ الذهبِ الأسودِ، علَى عُمقِ ألفَيْنِ أو ثلاثةِ آلافِ مترٍ تحتَ سطحِ الأرضِ.

وقبلَ السـكنِ فى المدينةِ، كانَتْ حسناءُ تساعدُ والدتَها فى رَعْىِ الأغنامِ بالمنطقةِ غيرِ البعيدةِ عنْ «مرسى علم»، يتركُهما الوالدُ فيغيب أيامًا بسببَ انشغاله فى التنقل بسيارةِ مركزِ التعدينِ، بعدَ أنْ كانَ يعملُ فى رَعْىِ الإبلِ ويغيبُ أحيانًا أسابيعَ أو شهورًا بحثًا عن المَرْعَى الخصيب لجماله.

وفى تلك الفترةِ المبكرةِ منْ حياتِها، تعلّمَتْ حسناءُ كيفَ تصنعُ أكياسًا مـنَ القماشِ تلفُّ بها ضرعَ الماعزِ لتمنـعَ عنها الصغارَ المولودةَ حديثًا، فلبنُ الماعزِ غذاءٌ رئيسىٌّ للبَدْوِ يعتمدونَ عليه كثيرًا فى الغذاءِ.

هنا صوّبَتْ حسناءُ نظرَها إلى ضروعِ الماعزتَيْنِ، ثُمّ افترشَتِ الأرضَ بجوارِ إحْدَاهما، وراحَتْ ترشفُ اللبنَ منَ الضرعِ مباشرةً.

كانَـتْ حسـناءُ وهى مع أمِّها، تخـرجُ مَعَ الحيواناتِ منذُ شـروقِ الشمـسِ ولا تعـودُ إلا مع غروبِهَا، وقَدْ تسـيرُ أثناءَ الرّعْىِ سـاعاتٍ طويلةً. ومع امتداد تجوالِها فى الصحراء طوالَ النهار، لا تحملُ معها طعامًا ولاشرابًا، فهذا تقليدٌ يحرصُ الآباءُ والأمهاتُ على أنْ يلتزمَ به الأبناءُ، لكى يتعوّدوا تحمُّلَ مشاقِّ الجوعِ والعطشِ.

قالَتْ حسناءُ لنفسِها: «لولا ذلكَ التدريبُ الذى كنتُ أراه فى ذلكَ الوقتِ قاسيًا على طفلةٍ مثلى، لما أتَتْنى الجرأةُ على القيامِ برحْلتِى هَذه الآنَ».

هنا تذكّرَتْ حسناءُ معركتَها معَ الصقورِ التِى تجمّعَتْ ذاتَ يوم فى السماءِ فوقَ رأسِها، محاولةً الانقضاضَ على القطيع لتخطفَ ماعزةً وُلِدَتْ منذُ يومَيْن. لم تكُنْ حسناءُ تملكُ إلا قِطَعَ الحجارةِ الصغيرةِ التى ظلّتْ تقذفُ بها الصقورَ فى إصرار وشجاعةٍ لتدافعَ عنْ قطيعِها، لكنّ الغلبةَ كانَتْ فِى النهايةِ للصقورِ التِى حملَتِ الماعزةَ الصغيرةَ بينَ مخالبِها، وهربَتْ مسرعةً صَوْبَ السماءِ.

فِى ذلكَ اليومِ قالَتْ لها والدتُها عندما رأتْها تعودُ باكيةً: «الشرُّ أو الأذى قادرٌ أن يَتجمّعَ لمهاجمةِ الإنسانِ، لكنْ على الخيرِ أَنْ يدافعَ عنْ نفسِهِ إلى النهايةِ، فهذِهِ هى قوةُ الإنسانِ الحقيقيةُ».

* * *



وذاتَ يوم عادَتْ حسـناءُ من الرّعْي مع الغروب، فلم تجدْ والدتَها ولا خيمتَهـم، بل وجدَت الوادىَ تتلاطمُ فيه مياهُ السيل الذى تدفّق عندما كانَتْ بعيدةً مع قطيع الماعز، فاكتسحَ أمامَهُ كل شيء.

وعادَ الأبُ مُسـرعًا عندمـا وصلَ إليه خبرُ السـيل، فلم يعثرْ على زوجته إلاّ عَلى مَبْعَدة آلاف الأمتار وقد قتلَتْها قطعُ الصخور المتدافعة التى حملَتْها معهَا مياهُ السيل الغادرةُ.

وكانَتْ حسناءُ أصغرَ من أنْ يتركَها والدُها وحيدةً فى خيمة الصحراء كمَـا اعتادَ البدْو هناكَ أنْ يتركُوا نسـاءَهم وأولادَهم، فباعَ قطيعَ الماعز واصطحبَ حسناءَ لتعيشَ معه فى مدينة التعدين الصغيرة.

وفُوجِـئ الأبُ ذاتَ يـوم بزميلٍ له فى مثل سـنّه يطلبُ الزواجَ من حسناءَ.

قالَ الوالدُ: «لا تجعلْ طولَ قامتِها يخدعُكَ عَنْ سنِّها.. إنها لا تزالُ صغيرةً».

قالَ الزميلُ: «نكتبُ الكتابَ ونؤجّلُ الزفافَ عامًا أو عامَيْن».

قالَ الوالدُ وهو يعرفُ أنّ الهدفَ الحقيقىّ لزميله أنْ يجدَ مَنْ ينظّفُ لـه بيتَهُ ويعدُّ له طعامَهُ ويرعى لـه - أحيانًا - بعضَ الأغنام، وأنه بعدَ عقد العقد لَنْ ينتظرَ سـنةً ولا شهرًا بل يتمسّكُ بأنها زوجتُهُ ومنْ حَقّه أنْ تنتقلَ إلى بيته:

«لابد أنْ أستمعَ إلى رأى ابنتى».

هنا عادَ الزميلُ يقولُ: «تقولُ إنها صغيرةُ السنّ، فلن يكونَ لها رأىٌ إلا الموافقةُ».

لكنّ الوالدَ كانَ يعرفُ أنّ طفولةَ ابنتهِ فى الصحراءِ جعلَتْ منها صاحبةَ رأيٍ وشخصيةٍ قويةٍ، وأنّ اعتمادَها علَى نفسِها واضطرارَها فِى كلِّ حينٍ إلَى اتخاذِ قراراتِها بنفسِها لمواجهةِ مَا يعترضُها مِنْ صعابٍ مفاجئةٍ، جعلَ منَ الضرورىِّ أنْ يعرضَ عليهَا الأمرَ كلّهُ وأنْ يحصلَ علَى موافقتِهَا.

قالَتْ حسناءُ فِى استنكارٍ وصورُ فتياتِ «مرسى علم» المتعلماتِ الحضريات تمرُّ أمامَها:

«الفتياتُ فِى «مرسى علم» لا يتزوّجْنَ صغيراتٍ فِى مثلِ سنىّ هَذه أبدًا!!».

قالَ الأبُ: «تتزوجينَ أفضلُ منْ أنْ أتركَكِ وحدَكِ طوالَ النهارِ فى المنزلِ».

قالَتْ: «كنْتَ متزوّجًا أمى، وكنتَ تتركُنا وَحْدَنا أيامًا وأسابيعَ».

قالَ: «الصحراءُ شىءٌ آخرُ.. هناك تحميكم التقاليدُ الصارمةُ التى تحترمُ المرأةَ والفتاةَ، وتقتصُّ أقْسَى القصاصِ لمنْ تُسوّلُ له نفسُهُ التعرضَ لأُنْثَى.. أمّا الآنَ، فأنت تعيشينَ فى مدينةٍ.. والمُدُنُ شىءٌ آخرُ!!».

عادَتْ حسناءُ تقولُ: «وكيفَ ترضَى أنْ تُزوّجَنى لرجلٍ يكبرُنى بثلاثينَ سنةً أو أكْثرَ؟! لن أكونَ أبدًا زوجتَهُ، بل جاريتَهُ!!».

وهكذا فشلَ الأبُ فى إقناعِها بمشروعِ زميلِهِ، الذى لم يكُنِ الأبُ نفسُهُ مُتحمّسًا كثيرًا له.



وكم تمنَّتْ حسناءُ لو التحقَتْ بالمدرسة الابتدائية بدلاً منْ قضاء اليومِ وحدَها فى البيتِ، لكنهم قالُوا لهَا إنّ سنّها أكبرُ كثيرًا منْ أنْ يسمحَ لهَا بالالتحاق بالسنة الأولى الابتدائية.

ومـا إنْ أتَتِ الجدةُ والدةُ أمّ حسناءَ فى زيارةٍ للسؤال عَنْ أحوالِ حسناءَ، حتى قالَتْ لها الحفيدةُ: «خُذينى أعيشُ معكِ يا جدتى كما كنتُ أعيشُ مع أمّى، لكى أبتعدَ عنْ عيونِ هؤلاءِ الذينَ يبحثونَ عنْ زوجاتٍ صغارٍ فى عُمرِ أحْفادِهم!».

عندئذٍ قالَ والدُ حسناءَ للجدةِ: «بلْ لماذا لا تبقَيْنَ معنَا هنا يا خالةُ، لتكُونى فى صحبتِنا، وتُصبحَ حسناءُ فى صحبتِك؟».

قالَتِ الجدةُ: «بلْ أنا التى لا أتصوّرُ كيف استطعْتَ أنتَ العيشَ فى هَذه المدينةِ المزدحمةِ بمساكنها المتجاورةِ، المكتظّةِ بالبشرِ الذينَ تصطدمُ بهم حيثمَا تطلّعْتَ. أنتمْ هنَا لا ترَوْنَ السماءَ، وتحتجبونَ عنْ أشعةِ الشمس. هل نسيتَ الأيامَ التى كنتَ ترعى فيها الإبلَ، وكانَت الصحراءُ بمراعيهَا المتراميةِ هى حياتَكَ؟! كيف تتحمّلُ العيشَ داخلَ هاتَيْنِ الغرفتَيْنِ الضيقتَيْنِ كأنمَا هما جُحْرُ ثعلبٍ خائفٍ، يراقبُ دخولَكَ وخروجَكَ أىَّ غادٍ ورائحٍ، ويُحصى عليك الآخرونَ كلّ حركةٍ وكلّ كلمة؟!».

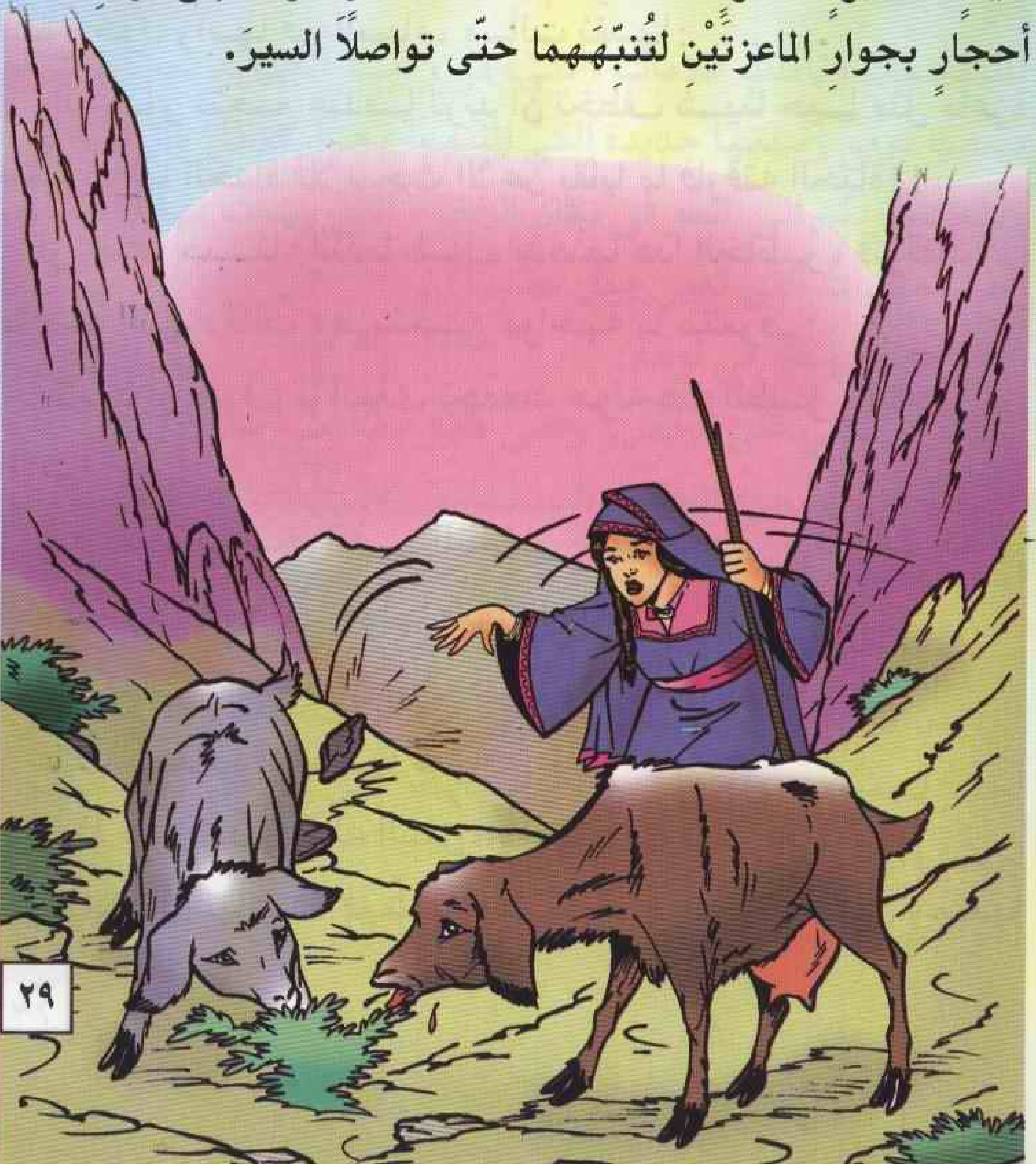
قَالَ الأبُ: «سيارتى حلّتْ محلّ الجمالِ، أذهبُ بهَا حيثُ أشاءُ فِى الصحراء».

هنَا حسمَتْ حسناءُ الحوارَ فقالَتْ: «لمّا كنتُ أنا وَجدتى لا نمتلكُ سيارةً، فإننى أفضّلُ الذهابَ إلى الصحراءِ مع جدّتى، أعيشُ معها كمَا اعتدْتُ أنْ أعيشَ معَ أمِّى».

وهكـذا ركبَتْ حسـناءُ الجملَ خلـفَ جدتِهَا، وقضتـا ليلةً بجوار البئرِ، وفى اليومِ التالى أكملتا طريقَهما إلى عشـةِ الجدةِ، تعيشُ فيها حسناءُ كما كانَتْ تعيشُ ذاتَ يومٍ فى الصحراءِ وبينَ الجبالِ مع أمِّها.

* * *

فجأةً عادَتْ حسـناءُ مـنْ ذكرياتِها، فقد تنبّهَتْ إلـى أنّ الماعزتَيْن قـد تخلّفَتا عنهَا، فالتفتَتْ حولَها تبحثُ عنهمَا. كانتا قدْ توقّفَتا أمامَ مدخـلِ مُنخفضٍ بينَ جبلَيْن تحاولان الوصولَ إلى بعضِ أوراقٍ خضراءَ قليلةٍ لشُجَيْرَةٍ صغيرةٍ، فأمسكَتْ حسناءُ بحجرٍ صوّبَتْهُ إلى كومةِ أحجارٍ بجوارِ الماعزتَيْنِ لتُنبِّهَهما حتّى تواصلاَ السيرَ.



لكنْ مَا إن اصطدمَ الحجرُ بالكومةِ حتّى انهارَتْ أحجارُها متساقطةً وهى تُحدِثُ صوتًا عاليًا ردّدَتِ الصخورُ صداه، ففزعَتِ الماعزتانِ وأسْرعتا تبتعدانِ عَن الشجرةِ.

لكنّ الصوتَ أفزعَ شيئًا آخرَ..

فَفى اللحظةِ التى تحرّكَتْ فيها الماعزتانِ، ارتفعَ فى الهواءِ سربٌ مِنْ طيورِ الحدأةِ الجارحةِ كانَ مختفيًا وهو يقفُ عَلى الصخورِ فِى مكانٍ مَا مِنَ الطريقِ الضيقِ بينَ الجبلَيْنِ.

رفَعَتْ حسناءُ عينيهَا تتأمّلُ الطيورَ قاتمةَ اللّونِ بأجنحتِهَا القويّةِ تسبحُ حولَ رأسِهَا فِى السماءِ، وسألَتْ نفسَهَا:

«الصقورُ تتجمّعُ عندمَا تُريدُ أَنْ تخطفَ شيئًا حيًّا مثلَ ماعزةٍ صغيرةٍ، أمّا الحدأةُ فلا تبحثُ إلاّ عنْ بقايا مَا فارقَتْهُ الحياةُ!!».

ارتجفَتْ حسناءُ عندمَا طافَ بذهنِها هذا الخاطرُ، فتوقّفَتْ عنْ مواصلةِ السيرِ. قالَتْ وهى تَخْشى مواجهةَ مَا ستعرفُ:

«لابدَّ أَنْ أَعرفَ مَا الذى تجمّعَتْ حولَهُ هَذِه الطيورُ الباحثةُ عنِ الموتِ!!».

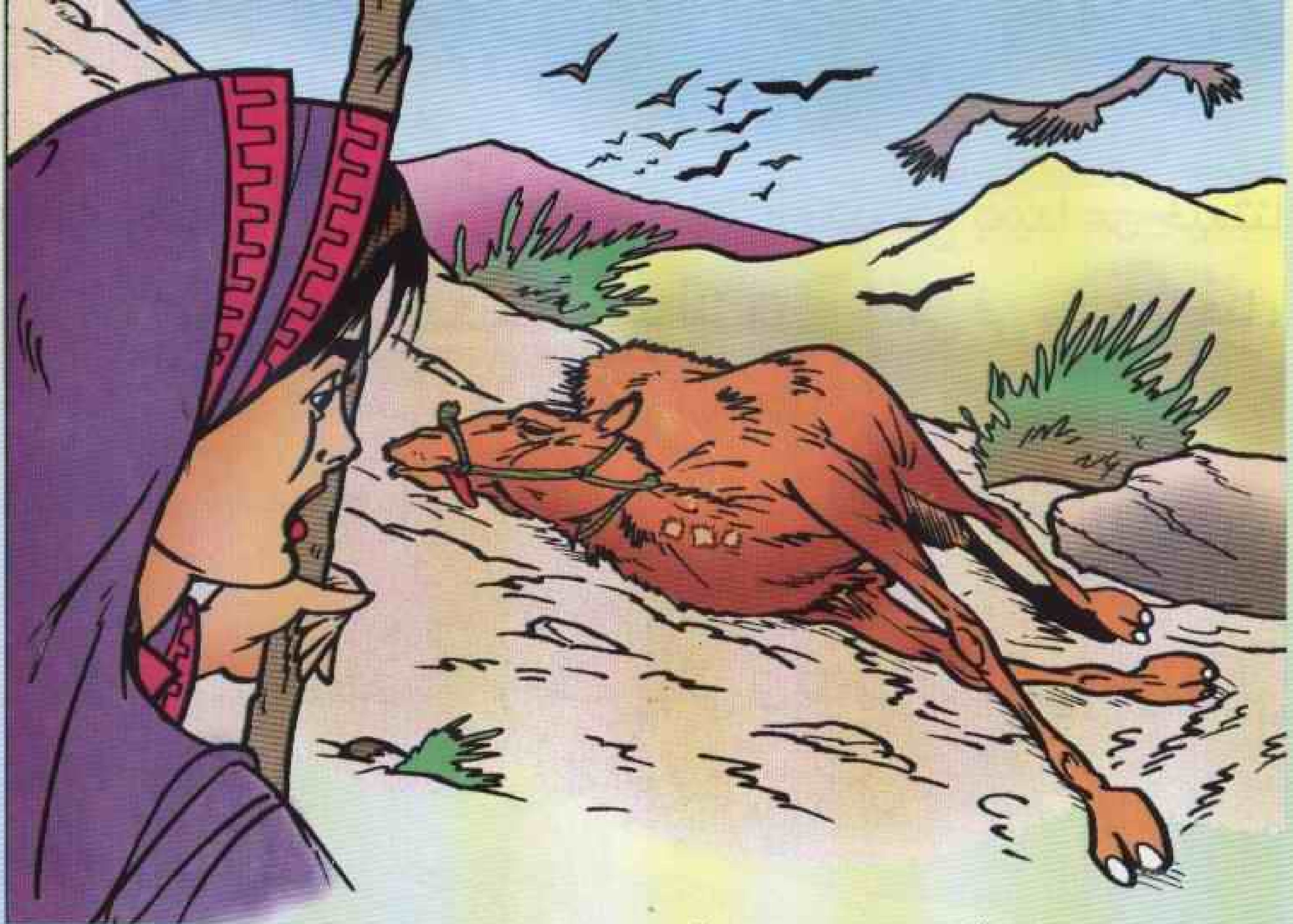
ووصلَتْ إلى صخرةٍ فى المنخفضِ بينَ الجبلَيْنِ، فرأت خلفَها الضحيةَ التى تجمّعَتْ حولَها طيورُ الحدأةِ..

كانَ هناك جسمُ حيوانٍ ضخمٍ قد استلقَى بغيرِ حركةٍ!

قالَتْ حسناء وقد صدمَها ما رأَت:

«هذا جملُ جدّتى قتلَهُ السيلُ، وحملَتْهُ المياهُ إلى هنا!».

وأرادَتْ أَنْ تتأكّدَ، فهشّتِ الطيورَ بعصَاهَا بعيدًا عنْ وليمتِهَا



المنتفخـــةِ، وتأمّلَتْ علامات «الكَيّ» فِى رقبـــةِ الجملِ.. نعم، دائرتانِ بينهمَا مربعٌ رسمَتْها حديدةُ الكَيِّ الملتهبةُ بحرارةِ النَارِ فأزالَتِ الوبَرَ ومنعَتْ عودتَهُ إلى النموّ فى مكانِ الخطوطِ التى رُسِمَتْ بها الأشكَال.. إنها العلاماتُ التِى تُميّزُ جملَ جدّتِها!!

صاحَتْ حسناءُ فى لوعة:

«السيلُ قضَى علَى الجملِ، وقضَى معه أيضًا علَى جدّتى!!».

وانهمَـرتْ دموعُ الحزنِ والصدمـــةِ منْ عينَيْها غزيرةً لا تستطيعُ التحكمَ فيها.

لكنها تنبّهتْ فجأةً إلى شىءٍ غابَ عنهَا، فتلفّتَتْ حولَها تتساءلُ:

«لكنّ جماعات الحدأة تجمّعَتْ فى هذه البقعة فقط، ولا يوجَدُ شىءٌ آخـرُ تجمّعَتْ حولَهُ هذه الطيورُ الرمامةُ، فهل يُعقَلُ أَنْ يقتلَ السـيلُ جملَنا وتنجُوَ جدّتى؟!».

وتمهّلَتْ تفكرُ قبلَ أَنْ تهمسَ ثانيةً لنفسِهَا:

«إذا كانَ والدِى قَدْ وجدَ ذاتَ يوم جسَدَ والدتــى بعيدًا عنْ خيمتنَا التِى كُنّا نعيشُ فيهَا، فلابدّ أنْ أجدَ أنا جسدَ جدّتى فِى مكانٍ مَا هُنَا، ولنْ أتركَها لحدأةٍ تجرؤُ علَى الاقترابِ منهَا».

وعادتْ تفتشُ جنباتِ الوادى الذى كانَتْ قدْ وَصلَتْ إليه.

كانَتْ تسيرُ مرةً إلى اليمينِ وأُخْرى إلى اليســار.. مرةً إلى الأمامِ وأُخــرى إلــى الخلفِ، ولم تعُــدْ تُبالِى أنْ تتبينّ أينَ هــو الطريقُ إلى البئرِ، فقد سيطرَتْ عليها رغبةٌ أقْوى:

«لابدّ أنْ أعثرَ على جدتى».

ولم تعُدْ تراقبُ الشمسَ للتعرُّفِ عَلى الوقتِ، ولــم تعُدْ تُلقِى بالاً إلــى الماعزتَيْنِ وقد ظهرَ كأنما أدْركتــا مَا تُعانيه صاحبتُهما، فانطلقتَا تتبعانِها كظلّها بغيرِ حَاجةٍ منها إلِى مراقبتِهمَا.

* * *

هنا تنبهَتْ حســناء إلى شــيءٍ غريبٍ: «هل توجدُ فى الطريقِ إلى البئرِ جبالٌ تتشابهُ كلّ هذَا التشابه؟!».

لقد وجدَتْ نفسَــها بجوار جبل لونُهُ أقربُ إلــى البياضِ وبجوارِه جبلٌ أكثرُ ارتفاعًا نصفُهُ العلوىُّ أحمرُ والآخرُ يميلُ إلى السوادِ.

والتمعَــتْ فكــرةٌ فــى وَعْيهــا: «وهــل أجــدُ أيضًا جمــلَ الصخرِ وسنامه؟».

وصدمَتْها الحقيقةُ.. فهَا هِىَ الصخرةُ التِى نَحتتهَا الرياحُ علَى شكلِ رأسِ جملٍ وعنقِهِ وسنَامِهِ!!



وقفَتْ مذهولةً تُردِّدُ لنفسها بصوت مرتفع:

«لقد عدْتُ إلى حيثُ بدأتُ بغيرِ أنْ أدرى. لم أجِدْ جدتى وضاعَ اليومُ بغيرِ أن أصلَ إلى البئرِ. منْ أينَ أجدُ الماءَ لِى وللعنزاتِ فى هذَا الوادِى شديدِ الجفافِ الذى اختارَتْهُ جدتى لتعيشَ فيه؟!».

كان لابد أنْ تتخذَ قرارًا حاسمًا، مهمَا كانَ فى تنفيذِهِ مِنْ مخاطرَ، فالبقاءُ فى مكانِها أو العودةُ إلى خيمةِ جدتِها معناه الموتُ عطشًا، ومحاولةُ معاودةِ السيرِ فى الطريقِ إلى البئرِ لنْ يؤدِّى إلا إلى التعرُّضِ لحلولِ الظلامِ قبلَ الوصولِ، ومواجهةِ مخاطرِ ليلِ الصحراءِ الغادرِ.

هنا تذكّرَتْ حسناءُ والدَها:

«لقد جاءَ في مرةٍ سابقةٍ عندمَا عرفَ بالسيلِ الذى قضَى عَلى وَالدَتِى، فهلْ يمكنُ أن يأتِىَ هذه المرةَ أيضًا ليبحثَ عنِّى أنَا وجدّتى؟ »،

لكنهــا عــادَتْ تقولُ: «فــى تلكَ المرةِ لــم نكُنْ بعيدينَ عــنْ مدينةِ «مرسى علم»، أما هنَا فالمسافةُ أطولُ والمكانُ أبعدُ كثيرًا».

وفى حوارهَا مع نفســها أجابَتْ عَنْ تساؤلاتِها: «وهل هناك مسافةٌ بعيدةٌ لَنْ يستخدمُ سيارَةً؟! صحيحٌ ليسَتْ هناك طرقٌ ممهدةٌ، بلْ فقطْ ودْيانٌ بينَ الجبالِ يُغطِّيها الحَصَى أو الرمالُ، لكنّ سيارةَ والدِى مُعَدّةٌ خصيصًا للسـيرِ بينَ الجبالِ وفــى الوديانِ غيرِ الممهدةِ، لكى تصلَ إلى أماكنِ معسكراتِ حفرِ آبارِ البترولِ».

* * *

عندئذٍ تذكّرَتِ الثعبانَ الملكىّ:

«لقد تتبعْتُ مرةً آثارَ زحفِهِ على الرمالِ بعدَ أنْ كنتُ قد ضللْتُ الطريقَ، فعادَ بى إلى عشةِ جدّتى، فهل يمدُّ لى اليومَ يدَ المساعدةِ؟!».

لكنها عادَتْ تتساءلُ: «لكن أيةُ مساعدةٍ هذه التى أنتظرُها منه وأنا فى حَاجةٍ إلى الماءِ، والثعابينُ لا توجَدُ عندها مياه؟ وعشةُ جدتى ليسَ بها ماءٌ، فلماذا أعودُ إليها الآن؟!».

ثم تذكّرَتْ أمرًا: «إذا جاءَ أبى بسيارتِه، فأين يجدُنى إلا عندَ العشةِ؟! وبالقربِ منَ العشةِ يُمكنُ أنْ أعثرَ عَلى أثرِ صديقى الثعبانِ الملكِىّ. وحتّى إذَا قَضَى العطشُ على حياتى، فالعشةُ يُمكِنُ أن تحمىَ جسدى من مخالبِ

ومناقير طيور الحدأةِ التى تنهشُ أجسـادَ الموتـى بغيرِ رحمةٍ، إلى أن يعثرَ عَلَىَّ أبِى، فيدفنَنى بعدَ أنْ يُقيمَ علىّ صلاةَ الجنازةِ».

لهـذا بدأتْ حسـناءُ رحلةَ العودةِ إلى «عشـةِ» جدتهَـا بخطوات متثاقلة، لا تتأخّرُ عنها الماعزتانِ وهمَا تشـاركانِها الإحساسَ بالظمأ والحاجةَ الشـديدةَ إلـى الماءِ. لكنْ أين الماءُ وبينهم وبينه مسـيرةُ يوم كامـلٍ عَلى ظهرِ جملٍ للوصولِ إلى البئرِ، والوقتُ يقتربُ منَ العصرِ، وليلُ الصحراءِ مُخيفٌ، والجملُ قد ماتَ؟!

* * *



كلُّ هَـذِه الخواطرِ لم تمنعْ حسـناءَ منْ تركِ الماعزتَيْنِ فِى «العشـة» عندمَا وصلَـتْ إليها، ثم الخروجِ إلى المنطقةِ المحيطَةِ تبحثُ عنْ آثارِ الحيةِ الملكيةِ.. كانَ هذَا هو الشىءِ الوحيد الذى يُمكنُ أن تقومَ بِه!

وطـالَ بحثُها، مـعَ أنهَا لم تعُدْ تفكِّرُ فى نوعِ المسَـاعدةِ التِى يمكنُ أن يُقدِّمَها لها الثعبانُ الملكِىُّ فى محنةِ العطشِ القاسـيةِ، وهى محنةٌ جعلَتْها أقربَ إلى الموتِ منها إلى الحياةِ.

لكنَّ دافعًا غَامضًا سَيْطَرَ عليهَا:

«لقد سـاعدَتْنى الحيةُ الملكيةُ ثلاثَ مراتٍ سَـابقةٍ وعَلى غيرِ توقُّعٍ منِّى، وقد أجدُ عندها اليومَ أيضًا نوعًا منَ المسـاعدةِ لا أستطيعُ تحديدَهُ أو توقُّعَهُ».

* * *

وكأنمـا هناك قوةٌ سـحريةٌ تدفُعها إلـى البحثِ عَنْ أثـرِ الحيةِ، فبحثَتْ عنه طويلاً، وأخيرًا وجدَتْه، وتتبعَتْهُ..

وتحتَ أشعةِ الشمس الدافئةِ عندَ العصرِ، وخلفَ صخرةٍ تُخفيه عن العيونِ، وجدَتْ حسناءُ صديقَها مُلْتفًّا حولَ نفسِهِ، وقد أراحَ رأسَهُ فوقَ طيّاتِ جسمِه.

وقَفَتْ حسَناءُ أمامَهُ ساكنةً وعيناهَا مُصوّبتانِ إلى العينَيْنِ الخضراوَيْنِ كأنهما زُمردتانِ تُشعّان بريقًا كالماس.

وفى جلالٍ رفعَتِ الحيةُ رأسَـها حتى أصبحَتْ عيناهَا فى مواجهةِ عينَىْ حسناءَ.



لم تكُنْ حسناءُ قد فكّرَتْ فى شىءٍ تقولُه عندمَا تلتقى بالثعبان الرائع، لكنها وجدَتْ نفسَها بغيرِ تفكير تُشيرُ إلى فمِهَا وتضغطُ بكفّيْهَا عَلى بطنِها وتقولُ فِى استغاثة: «ماءً!!.. أنا عَطْشَى..!».

وَتأمّلها الثعبانُ الملكىُّ لحظات، كأنما يحاولُ أن يتأكّدَ منْ معنى لهجةِ الصوت المُتوسّلِ الذى أرهقَهُ العطشُ، ودلالةُ إشاراتِ الأيدِى التِى تُفصحُ عنْ أنّ الجسمَ أصبحَ يفتقدُ أهمّ ما يحفظُ عليه الحياةَ؟!

ثم راقبَتْ حسناءُ الثعبانَ الملكِىّ يهبطُ برأسِه الشامخ ليستقرّ فِى هدوءٍ فوقَ الرمالِ، ثم انسابَ جسمُهُ الرشيقُ الطويلُ مِنْ بينِ الطيّاتِ، وانطلقَ إلى الأمامِ.

وسارَتْ حسناءُ بجوارِه لا تعرفُ إلى أينَ يقودُها.

لقد نزلَ إلى بطنِ الوادِى، وانسابَ إلى مِنْطقَةِ مناجمِ الذهبِ المهجورةِ القديمةِ التى سبقَ لحسناءَ أنْ شاهدَتْ علَى جدرانِها الصخريةِ صورةَ الثعبانِ المقدسِ منحوتةً نحتًا بارزًا يُعبّرُ عن القوةِ والاعتدادِ.

هناكَ اتجهَ الثعبانُ إلى فتحةِ كهفٍ صغيرٍ لم يسبقْ لحسناءَ أنْ لاَحظَتْهُ، لأنّ صخورًا كانَتْ قد سقطَتْ مَعَ سيولٍ سابقةٍ فأخفَتْهُ،



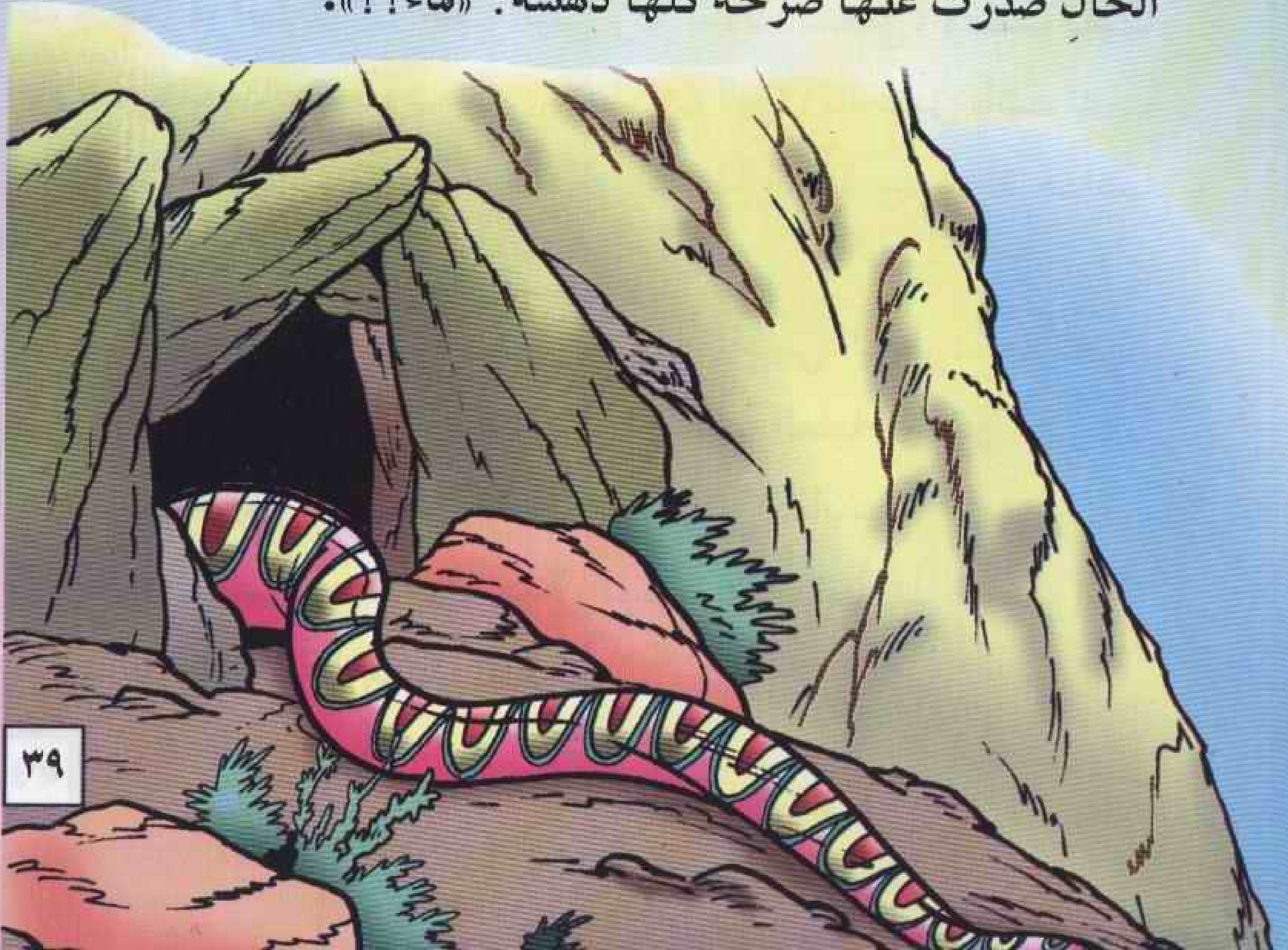
ودخلَتِ الحيةُ إلى الكهفِ.

سـألَتْ حسناءُ نفسَـها: «هل أدخلُ خلفَهُ؟ أظنُّ أنّ هذا هو مسكنُهُ، فهـلْ مِـنَ المناسـبِ أنْ أزاحمَهُ حيث يعيـشُ أم أنتظـرَهُ حتى يعودَ ويخرجَ؟».

وتذكّرَتْ حكاياتٍ سـمَعتْها منْ والدتِها وجدتِها، عنْ حياتٍ قادَتْ مَنْ فعلَ معها الخيرَ إلى مكانٍ كنوزٍ هائلةٍ مُخبّأةٍ منَ الذهبِ واللآلئِ، كما تذكّرَتْ كيفَ ساعدَها الثعبانُ فى مرّاتٍ سابقةٍ، فدخلَتْ.

وتقدّمَـتْ خطواتٍ فـى فراغِ الكهفِ المُظلِمِ، ثم فوجئَتْ بانكشـافِ النهايـةِ الداخليةِ للكهفِ عنْ فجوةٍ متسـعةٍ فى السـقفِ الصخرِيِّ، جعلَتْ ضوءَ النهارِ يتدفّقُ منها فيغمرُ المكانَ.

وأنزلَـتْ حسـناءُ بصرَها منَ الفجـوةِ التِى كانَتْ تتطلّـعُ منها إلى السـماءِ، لِتُلقِىَ نظرةً عَلى الأرضِ أمامَهَا وعَلى ما تحتَ قدمَيْها، وفى الحالِ صدرَتْ عنهَا صرخةٌ كلُّها دهشةٌ: «مَاء!!».



كانَ الضوءُ يسـقطُ مباشرةً مِنْ فتحةِ السـقفِ ليتلألأَ عَلى سطحِ مياهٍ تملأُ خزانًا قديمًا مُتّسَعًا منحوتًا فى الصخرِ الأصمّ، قدّرَتْ حسناءُ أنّ المياهَ ملأَتْهُ عندمَا ارتفعَ ماءُ السيلِ فى الوادى بعدَ ظهرِ اليومِ السابقِ.

ورأتْ حسـناءُ بضْعَ درجاتٍ صغيرةٍ محفورةٍ فِى الصخرِ عَلى جدارِ الخزانِ إلى يسارِهَا، فهمسَتْ لنفسِهَا:

«لا شكّ أنّ الأجدادَ كانُوا يستخدمونَ هذه الدرجاتِ منذُ آلافِ السنينَ للنزولِ إلى قاعِ الخزانِ، لتنظيفه ولاغترافِ الماءِ إذا هبطَ سطحُهُ كثيرًا عنْ متناولِ أيديهم عندَ الحافةِ العُلْيا للخزانِ».

وَفِـى حـذرٍ نزلَتْ عَلى الدرجاتِ المهشـمةِ غيرِ المسـتويةِ، إلى أن وصلَتْ عندَ مستوى سطحِ الماءِ، ثم اغترفَتْ بكفّيْهَا، وشربَتْ!

كانَ الماءُ عذبًا.. أعْذَبَ ماءٍ شربَتْهُ فى حياتِهَا!

وفجأةً تذكّرَتِ الثعبانَ الملكِىّ، فلم تُكمِلْ إرواءَ ظمئِهَا، بلْ عادَتْ تصعدُ الدرجاتِ، ووقفَتْ فى مواجهةِ عينَىْ رمزِ الملوكِ القدامى، وضمّتْ كفّيْها أمامَ صدرِهَا، وقالتْ بصوتٍ يَمْلؤه الاعترافُ القوىُّ بالجميلِ «أشكرك».

ثم تذكّرَتِ العنزتَيْن، فأسرعَتْ إلى الخيمةِ لتعودَ بهمَا؛ لتأخذَاهمَا أيضًا كفايتَهما منَ الماءِ.

ومع الماعزتَيْنِ أحضرَتْ منَ الخيمةِ وعاءَ الطّهْى الكَبير، فملأَتْهُ من مـاءِ الخزانِ الصخرىّ، ووضعَتْهُ عندَ الحافـةِ العليا للخزانِ، وتركَتِ الماعزتَيْنِ تشربانِ كفايتَهما بعدَ أنْ شربَتْ هِىَ كفايَتَها.

وعندما تلفتّتْ تبحثُ عن الحيةِ، لم تجدْها.. كانَتْ قد اختفَتْ أثناءَ ذهابِهَا إلى الخيمةِ لإحضَارِ الماعزتَيْنِ.



عندمَا عادَتْ حسـناءُ تَلْتفتُ إلى الماعزتيْنِ، لاحظَتْ أنهمَا قدْ تركتَا الوعاءَ بعدَ أَنْ فرغَ مَا فيه منَ الماء.

ودهشَتْ عندما وجدَتْهما لمْ تنزلاَ الدرجات لتصلاَ إلى سطح الماء المنخفض فى الخزانِ الصخرىّ، بلْ كانتا تلعقان الماءَ منْ سطحِ صخرةٍ أسفَلَها مَا يُشبه المجْرى الضئيلَ، يمتدُّ ما بينَ حافةِ الخزانِ العليَا وتلكَ الصخرةِ.

اقتربَتْ حسناءُ منَ الماعزتَيْنِ وهى تسألُ نفسَها:

«مـنْ أينَ جاءَ هـذا الماءُ الذِى تلعقُـهُ الماعزتانِ عندَ حافـةِ الخزّانِ العلْيا؟!».

وكم كانَتْ دهشـتُها عندمَا اكتشفَتْ شـقًّا صغيرًا فِى الصخرةِ التى تعلُو المجْرى الضئيلَ، تنبثقُ منه نُقَطٌ صغيرةٌ منَ الماءِ، لكنها لا تتوقّفُ ولا تنقطعُ!!.

صاحَتْ حسناءُ فى دهشةٍ اختلطَتْ بفرحةٍ غامرةٍ، وهى لا تُصدّقُ ما ترى ومَا تقولُ:

«نبعٌ.. هذا نبعُ ماءٍ!!».

ثُمّ نظرَتْ إلى الماءِ فى الخزانِ وأضافَتْ:

«هَذَا ليسَ ماءَ السيلِ.. إنه رائقٌ صافٍ.. إنه ماءُ النبعِ!!».

كانَ هذا اكتشـافًا أثْمَن بالنسـبةِ إلى حسـناءَ وأغْلَى منَ اكتشـافِ الذهب داخلَ المنجمِ!

قالَتْ تحاولُ أن تُقنِعَ نفسَـها بأنهَا تعيـشُ فِى الحقيقةِ وليسَ فى خيالِ قصَصِ جدتِهَا ووالدتِها:

«عينُ ماءٍ فى الصحراءِ هى الحياةُ، وهى الحمايةُ منَ الموتِ عطشًـا،

وهى عدمُ الحاجةِ إلى السفرِ نهارًا كاملاً للذهابِ إلى البئرِ والعودةِ.. بلْ هِىَ أيضًا إمكانيةُ زراعةِ أشجارِ النخيلِ والزيتون».

ومعَ ذلكَ فقد قالَتْ فِى اللحظةِ التاليةِ، كأنما ندمَتْ عَلى فرحتِها:

«لكنْ أينَ جدتى لتسعدَ معى بهذَا الاكتشافِ العظيمِ؟! منْ غيرِ المُمكنِ أنْ أستطيعَ مواصلةَ الحياةِ وحْدى هنَا بغيرِ جدّتى، حتى بعدَ العثورِ عَلى هذَا النبعِ النادرِ الثمينِ!».

ثم التفتَتْ تسحبُ الماعزتَيْنِ، تقودُهما فى غيرِ حماسٍ إلى عشةِ جدتِها.



كانَـتْ تخطُو منْ صخرةٍ إلى صخْرةٍ، إلى أنْ نزلَت الوادىَ الذى كانَت تحجبُهُ عنها بعضُ الصخورِ التِى تُحيطُ بمنْطَقةِ مناجمِ الذَهبِ القديمةِ.

وفوجئَتْ بسماعِ صوتٍ لم تعتَدْ سماعَهُ هنا أبدًا.

وبتركيزٍ شديدٍ عادَتْ تُصغِى ثانيةً..

إنه صوتٌ تعرِفُهُ جيدًا، لكنها لا تُريدُ تصْديقَ أذنَيْها!!

هَلْ يُمكنُ أَنْ يكونَ هوَ الصّوتَ الذى كانَتْ تترقّبُهُ كلّ مساءٍ فِى ميعادِ عودةِ والدِها منْ مركزِ التعدينِ إلى بيتِهم فِى مدينةِ «مرسى علم»؟!

وفجـأةً أفلتَت حسـناءُ الماعزتَيْنِ منْ بينِ يديْهـا، وقفزتْ إلى قمةٍ مرتفعةٍ لترى الوادىَ كلّهُ بوضوحٍ..

وكانَ ما سمعَتْهُ صحيحًا..

فهذه سيارةُ والدِها تتقدّمُ ببطءٍ فى الوادِى.

وبصرخةٍ اختلطَتْ فيها الفرحةُ باللّوعةِ صاحَتْ:

«والدِى جاءَ يبحثُ عنّى، لكنْ جدّتى أخَذَها السيلُ كمَا أخذَ والدَتى مِنْ قبلُ!!».

واندفعَـتْ تقفزُ إلى بطنِ الوادِى، تُسـرِعُ وقد ملأَهَا الانفعالُ لملاقاةِ والدِهَا.

وشاهدَها والدُها، فأوقفَ سيارتَهُ فى انتظارِهَا.

لكنّ حسناءَ لم تجدْ والدهَا وحدَهُ فِى السيارةِ..

صاحَتْ وهى تفتحُ فِى لهفةٍ بابَ المقعدِ الخلفيِّ:

«جدّتى!».

وفى نفسِ اللهفةِ صاحَتِ الجدةُ:

«حسناءُ!».



كانَـتْ كلٌّ منهمَـا كأنما عثرَتْ عَلى شـخصٍ بُعِثَ إلـى الحياةِ منَ الموتِ!!

وفى عبارات قليلةٍ، عرفَتْ حسناءُ أَنّ الجدةَ عندمَا كانَتْ فِى طريقِ عودتِهَا منَ البئرِ، ملأَهَا إحسـاسٌ داخلِيٌّ بالخطرِ. وفى الحالِ تركَتِ الجملَ فِى بطنِ الوادى، وتسـلّقَتْ جبـلاً حيثُ احتمَتْ بصخرةٍ بعيدًا عنْ ماءِ السـيلِ الذى تَدفّقَ بعدَ لحظاتٍ مـنْ صعودِهَا. وبعدَ أن تَوقّفَ السيلُ، اكتشـفَتْ أَنّ الجمل قدْ ماتَ فقَدْ رأتْهُ طافيًا فوقَ الماءِ، فعادَتْ مَشْيًا إلى البئرِ، حيثُ قابلَهَا والدُ حسـناءَ، وجـاءا معًا يبحثانِ عنِ الابنةِ والحفيدةِ.

هتفَتْ حسناءُ:

«فِـي هَذه المرةِ لنْ يعودَ أبى إلى مرسـى علم، ولنْ تعودِى يا جدّتى للسفرِ إلى البئرِ مرتَيْنِ فى الأسبوع!».

صاحَ الأبُ فى دهشةٍ: «وكيف نَعيشُ؟!».

صاحَتْ حسناءُ:

«وجدْتُ نبعَ ماء!!».

وفى صوتٍ واحدٍ صرخَتِ الجدةُ والأبُ غيرَ مُصدّقَيْنِ:

«تقولينَ نبعَ ماءٍ؟!».

أجابَتْ حسناءُ:

«وسنزرعُ النخلَ والزيتونَ، ونقتنى قافلةَ جمالٍ، وقطيعًا كاملاً مِنَ الماعز والضأن!!».

قالَ الأبُ وكأنه استمعَ إلى مزحَة:

«قُولى كلامًا معقولاً غيرَ هذا يا حَسْناءُ!».

وقالَت الجدةُ غيرَ مصدقة:

«أعيـشُ فى هَـذِه المنطقةِ الجـرداءِ القاسـيةِ منذُ خمسـينَ عامًا، وتكتشفينَ أنت اليومَ عينَ ماءٍ؟!».

قالَتْ حسناءُ:

«دَلّتْنى عليها الحيةُ الملكيةُ!».

وتَبادَلَ الأبُ والجدةُ النظرات، كأنمَا قدْ بدأَ الشكُّ يساورُهما فى سلامةِ قُوى حسنَاء العقْليّةِ، نتيجةَ الفزعِ الذِى واجهَتْهُ معَ السيلِ.

وأرادَتْ حسـناءُ أَنْ تُؤكِّـدَ أَنَّ الأمـرَ جَدٌّ لا هزلَ فيـه ولا خيالَ، فأضافَت:

«الماءُ يسـيلُ مــنَ الصخرِ فِى قطراتٍ، لكنها قطـراتٌ لا تنقطعُ منذُ آلافِ السـنينَ.. يبدُو أَنّ عمالَ منجمِ الذهبِ كانُوا يعتمدونَ عليهَا فِى الزمنِ القديم».

وأشرقَت الحقيقةُ أخيرًا علَى ذهنِ الأب، فقالَ فِى حماس:

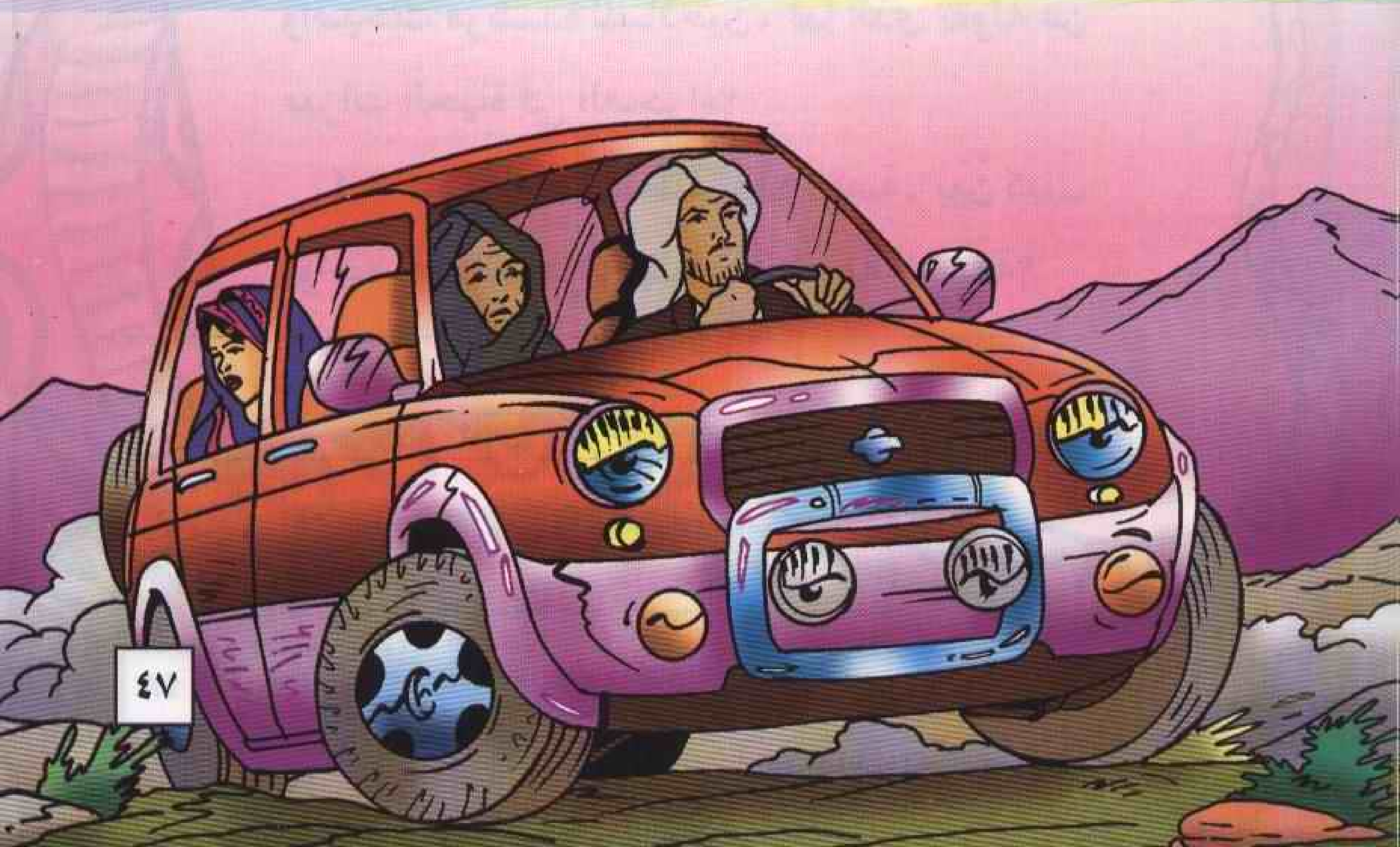
«وعَلى صخُورِ المنجم كتاباتٌ ورسـومٌ أثرِيّةٌ.. سنُقيمُ أيضًا معسكرًا للسـياحةِ الصحراويـةِ، أجيءُ إليه بالسـائحينَ منْ «مرسـى علم»، مستخدمًا سَيّارتى..».

وأضَافَتْ حسناءُ قائلةً لوالدهَا:

«وتختـارُ لِى مَنْ أتعلمُ معهَا القراءةَ والكتابـةَ واللغاتِ الأجنبيةَ، وأُصبحُ مُرشِـدةً للسـائحينَ عندما يمتلئُ بهم معسكرُنا، الذِى لابدّ أن نُطلِقَ عليه اسمَ «معسكرَ نبع الثعبانِ الملكيِّ» ».

هنا قالَت الجدةُ فى استنكار:

«لقد أصبحَ كلاكما يُحِبُّ الضوضاءَ والزحمةَ، فليرحمْنى اللهُ!!».



أنشطة حول القصة:

- نقتــرحُ عليكَ أن تشــتركَ فى أحــدِ ، أو كلّ الأنشطةِ الآتيةِ:

١ - تمكّنَتْ حســناءُ أن تعتمدَ على نفسِها فى مواجهةِ مواقــفَ خطيرةٍ وجديــدةٍ عليها، اذكرْ بعضَ مواقفِ القصةِ التى نتعرفُ من خلالِها على أهمّ ما يُميّزُ شخصيةَ حسناءَ.

٢ - تناولَتِ القصةُ بعضَ المعتقداتِ الشعبيةِ لمن يســكنونَ صحراءَ مصر الشرقيةَ بينَ سلاسلِ جبالِ البحــرِ الأحمــرِ ووادى النيلِ، اذكــرْ بعضَ هذه المعتقداتِ وبَيّنْ رأيَكَ فيها.

٣ - تَخيّلْ أنكَ فى موقفِ حسناءَ بعد أن تعلّمَتْ وأصبحَتْ مرشــدةً للسائحينَ، فما الذى تقولُهُ عن ميزاتِ الحياةِ فى الصحراءِ؟

٤ - فــى ضوءِ مطالعتِكَ لهذه القصةِ، بَيّنْ كيفَ يواجهُ أهلُ الصحراءِ تقلباتِ الطبيعةِ العنيفَةِ؟

رقم الإيداع	٢٠٠٥/٢٢٥٢٨
الترقيم الدولى	977-02-6906-9 ISBN

٧/٢٠٠٥/٧١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)